ضائعة
بين العشق والخيال
رواية
راندا عبد الحميد

رواية

ضائعة بين العشق والخيال

"روني وحكايتها"

بقلم

راندا عبد الحميد

تصميم غلاف

"عمر الخضري"

تصميم داخلي

"دعاء نبوي"

شكر واجب..

_ أمي أنا..

كنت ومازلت الدافع لأستمر.. وسأظل استمد منكِ صلابة أنت وحدك من تدركيها.. جعلك الله لنا زخرًا يا غالية..

_ مُحَمَّد أخي..

من أجلك أنت وفقط.. عادت راندا من جديد ذات يوم لمحرابها لكي تنهل من بحر الكلمات.. واشهد بأن لولا كلماتك ما بدأت في كتابة هذه الرواية ولا أعدت تشكيل نفسي بأكملها.. شكرًا لك بحجم الكون..

_ دعاء عبد الرحمن..

الكاتبة الجميلة والرقيقة وصاحبة الأخلاق الرائعة.. شكرًا لك كصديقة.. شكرًا لك ككاتبة.. شكرًا لك كقدوة ومثل أعلى لكثيرًا منا.. وجزاك الله خيرًا على كل ما قدمتيه لي من دعم ومجهود..

المقدمة

قرائى الأعزاء.. وجب التنويه..

فكرة الرواية مأخوذة من قصة حقيقية حدثت بالفعل.. علي أرض واقعنا.. وعندما أذن الوقت لكي لتمر على منصتى.. أضفت بضع من قطرات قارورة الخيال إلى كأس الحقيقة.. لأكتشف فى النهاية أن..

خلف ظلال الشك يوجد واقع..

وتحت قناع الصمت هناك حياة..

ولكن..

ليس لكل سؤال جواب..

ففي حياة كل منا سؤال..

إجابته دائمً ضائعة..

بين العشق والخيال..

الحب لا يقتل العشاق ...

فقط يجعلهم معلقين بين السماء والأرض ...

البداية رحيل

طريق جبلى ملتوي ضيق لم تنر فيه شمس من قبل ولم يسطع فى ليلة قمر، كنت أسير بنفس الطريق الذى رحل منه آخر مرة، حتي أنتهى المطاف بي أمام باب فولاذي مصمت عملاق يأتي من خلفه صوت يئن، أسرعت الخطى لشباك صغير وجدته فى أوسطه، فظهرت حوائط كهف بحواف مدببة.

فى أقصى المكان شاهدت رجل يفترش الأرض منكس الرأس، أطرافه الأربع مكبلة بأصفاد سلاسل حديدية فى أقصى الشرق والغرب.

ناديته بهسيس همس فرفع رأسه ببطء، وبدأت ملامحه المعذبة تنكشف رويدًا رويدًا حتى التقت عينانا فنظر لي بخواء. دق قلبى بعنف وأنا أكتشف الرجل المعذب أمامي ما هو إلا "يوناس".

بحثت بهستيريا بالباب والجوانب الصخرية الصماء المجاورة لعلى أجد طريقة للعبور اليه، هرولت فى الطرقات الضيقة المجاورة بغير هدى حتى غمرني اليأس. عدت مقهورة إلى المنفذ الوحيد بيننا، أناجيه ليعود.

ذكرته بسنوات طويلة تقاسمناها سويًا حتى لفحني لهيب عينيه الثائرة. اعتذرت بندم عن التشبث الأحمق بحلمي الأرعن الذى فرقنا، فتحول لهيب عينيه إلى قطران أسود. بدأت جفنيه فى الإتساع للأسفل حتى أقتربت من شفتيه، وخيوط من الدماء بدأت تتسرب من حدقتيه. وأصبح يزمجر بغضب ويتحرك بعنف ويصدر أصوات عالية هزت أركان المكان لكي يفك قيوده وفجأة أخذ دخان يصعد من تحت الأرض أحاطه داخل دوامته، حتى تعالى عقير صرخاته فزلزل الكهف بأثره.

تساقطت الصخور من كل مكان فحجبت المنفذ الوحيد لرؤيته. ابتعدت للخلف بجزع صارخة بأسمه، فتحركت الجدران وأطبق المكان بفوران غضبه حولى وأذرع غير مرئية تكالبت ملتفة على جسدي أخذت تنهشه..

وصوت من بعيد بدأ يردد...

"سبق السيف العزل".

الضياع الأول

"يوناس"

هبت نسمة رقيقة انتشت بها الأشجار، وتفتح معها بتلات الأزهار فكشف الغطاء عن المستور...

كنت طفلة فى الإهاب النحيل عندما دغدغ شعاع الحياة جفونى الناعسة. تحركت بدلال وانفرجت عيوني بكسل، لمع عسل مقلتى بانشاده عندما تحول بيتى الصغير لقصر منيف فجأة.

انزلقت بسعادة من فوق سريري الوثير، وخرجت لممر طويل مفروش بسجاد أحمر فاخر مطرز باللونين الأسود والذهبى لأشكال هندسية دقيقة. تخطيت أبواب عديدة مزخرفة ومغلقة، وتدلى فاهى من روعة نقوش اللوحات المرسومة والتحف الأثرية العتيقة المعلقة.

انشقت أساريري لرؤية جمع من أهلي ببهو القصر، تخطيتهم مبهورة بنقوش السقف والثُريات المتدلية بثراء فاحش حتى اقتربت عن كثب من الهدايا المتراصة بتناغم منسق.

صفقت بإعجاب وأسرعت اكتشاف خباياها. أخرجت دبدوب وردي بسعادة، واتبعته بعروسة تتمايل على أنغام الموسيقى برشاقة فظهر من خلفهم شاب وسيم كفارس خارج من قصص الحواديت.

أفتر ثغره عن بسمة سعيدة فتلألأت جميع الأنوار حولنا. أقتربت خطواته بتمهل وثقة حتى أصبح أمامي. دنا ينظر لعيني بحنين هامس باشتياق

_ الأميرة "لافينا" الجميلة، يا من فتنت القلب بسحرك، وملكتى الحلم بوسمك، عادت روحك كما كنتى، وقلبى ظل كما عشقك. لأجلك طلبت العفو من أغلب ملوك الأرض، وعدت من خلف الكهوف وقبلت الشرط المجحوف، لأوصل ما قُطع وتبقي من حبال الشوق.

ضعت بين معانى طيات كلماته فأغمض عينيه لبرهة والبسمة مازالت عالقة على فاه، وتنهد ثم انحنى لأذنى هامس بأسمه وأبتعد. رددت اسمه "يوناس" كما نطقه بعدم فهم.

تجاهل حالتي وأخرج من بين مخبأ بنطاله سلسال بقلبين ولفها حول عنقى فأنسدلت مفتوحة. صدمتني صورة محفورة بداخلها لفتاة بتاج لامع تشبهني ولكنها بزمن غير الزمان، ومكان غير المكان. قطع تأملي قائلاً:

_ تشبهك وليست أنتِ فما أجملك الآن يا أميرتى.

نظرت بفضول لقسمات وجهه الجميلة الغامضة وعينيه التي يقف خلفها الف حاجز يمنع قرائتها.. فقطع طريق نظراتي قائلاً

_ شوفى ومتسأليش، وعن أصل الحكاية متدوريش.

وأكمل برجاء

_ تعالى نرجع لبلادنا تكونى زي زمان أميرتى وأكون كل حراسك، لكن بشرط والشرط غالى، عنى تانى ماتبعديش ومن الكون غيري ما تعرفيش وعن بني الإنس ما تدوريش.

تراجعت للخلف برفض. ألتفت للخلف لأري أبي الغير مدرك لوجودي خائفة، فانهار يوناس أمامي على ركبتيه باكيًا وقد بلغ الحزن منه مبلغاً. رق قلبى لحاله فاقتربت اجمع شتاته قائلة:

_ خلاص، تعالى نفضل هنا مع بعض.

رفع وجهه الباكي بفرحة منتصر، وبسمة ذئب ماكر أختفت فى لمح البصر. وقف محتضن كفى بصمت، وسار بى نحو مستقبل أجهله.

دخلنا غرفتي السابقة، وحملنى بخفة على سريرى، وانطلق يلف ويدور فى دوامات كالبلور على أطراف الصور حتى أصبح فى هيئة طفل يكبرنى ببضعة أعوام فقط.

راقبت ما حدث غير مصدقة وقد شُلت الكلمات على طرف الشفاه. أقترب بأعين لامعة وأسبل جفنى بلمسة سحرية، وهمس بتعويذة متناغمة لكي يضمن إعتماء بصيرتي عن كل ما هو جميل فى عالم الرجال منذ هذه اللحظة، مصرحًا بأول انتصاراته لبني جنسه وأنه بموافقتي قد أغدف الصياد على الشبك.

وبداخله كان متشبسًا بآخر فرصة له في العيش حراً فى عالم حرم منه بأكمله وإلا سيعود للسجن وهذه المرة سوف تكون للأبد.

****

مر وقت لم أعِ قدره.. ولكن حين أبصرت نور الحياة من جديد كنت أقف أمامه.. وبجوارنا تل الهدايا العملاق.. أشار يوناس هذه المرة نحوي بطرف إصبعه وسار أمامي فتبعته بفضول.

سرت أتأمل من حولي.. وعندما إلتفت خلفى وجدت الأرض تطوى خلفنا.. كانت مثل سجادة تقوم أمي بطيها ليظهر من تحتها السراب..

وصلنا لنهاية القصر فأزاح يوناس ستارةً حمراء مخملية طويلة مرصعة بحبات اللؤلؤ.. فظهرت من خلفها حديقة واسعة ناصعة الخضار محاطة بالأشجار من كل صوب وجانب. اقتربنا من طرف البوابة فانخفضت من السماء بساط سحرى حتى استقر أمامنا.. تقدمنا... ومع أول خطوة فوقه أرتفع بنا وانطلق.

تشبثت بـ "يوناس" حتى هبطنا على طرف بستان غناء مسقوف أعلاه بالأغصان ومضاء كالنهار بنور ليس له مصدر. لفحنى أريج الورود الزاهية والمتراصة على الجانبين بجذعها متفاوت درجات الخضار، وتوسطت أرضها كواعب مرمر، والتفت حول أغصانها سلاسل ذهبية حتى قمتها.

صعدنا على بداية جسر رخامي يطوق البستان بشكل دائرى، ويتفرع منه عدة جسور داخل البستان، وينتهى كل منها بقصر شاهق مُطعم وجهه بأحجار كريمة لامعة. جذبتنى منحوتات أحدهم المصقولة بحجر الجارنيت الياقوت السيلاني، وطعُمت مشربيته بالألماس، ورسم على بابه بعقيق خلاب، وقبل أن أصل للنهاية أعادني صديقى للبداية محذرًا من لمس حجر يدعي "سم الشيطان" فهو عليه اللعنة وليس له غفران.

أبتسمت متجاهلة تحذيره وركضت أنافس صفوف العصافير الطائرة والمغردة بألوانها المشابهة بقوس قزح، حتى اكتشفت طريق جديد.

شهقت من روعة القصر الذي رايته باخر الطريق، فهمس "يوناس":

_ ده قصر بُنى على يابس الأرض، وحروفه من حر النار، وقواعده من لين الماء فصار ساخناً لين، وسخنت الشمس عليه بحرها قوى على نسف الحر واليبس.

أكملت الزحف داخل البستان حتى بدأ الضيق يطبق على صدرى.. تجاهلته وأكملت السير فزحف الأَلَم إلى باقي جسدي.. بدأت أشعر بأن أنفاسي تضيق ويصعب خروجها.. والرؤيا بدأت تتسرب وتتلاشي من حدقتى حتى سقطت على ركبتي أمام قصر جديد ... ورويدًا رويدًا بدأت الصورة تضيع من امامي حتي اختفي كل شئ من حولي..

أستيقظت من النوم متعرقة فوجدت نفسى ساقطة على أرضية غرفتي.. ببيت والدي القديم، وقد غاب يوناس عني ورحل القصر من بعده. بحثت في غرفتي عن صديقى بنهم فلم أجد له أثر.. وأكتشفت أن ما مر كان مجرد "حلم"..

تلمست رقبتى باحثة عن السلسال المنسدل بهلع.. وبدأت دموعي في النزوح عندما تأكدت من فقدانه.. وتذكرت كلمة "السر" فعدت إلى مخدعى وأغمضت جفوني مطالبة بعودة "يوناس" لأحلامي من جديد..

****

منذ هذه الليلة أصبح "يوناس" يأتينى خلسة ليلاً ليخطفني لعالمه.. ذقت معه رغد العيش خارج أسوار الواقع، و تذبذبت بين غياهب لم أجد لها أبواب. دخلت سراديب الغلمان.. ووقفت على فوهات البراكين.. وغصت بين الرمال المتحركة، ثم أعود فى الصباح لأرض الواقع.. فوق وسادتي التي لم أكن أغادرها من البداية ولو أنشً واحداً.

لم أرى "يوناس" يومَا إلا بهيئة بشرى فاقتنعت أنه إنسان خارق للعادة وشغلت سعادة رحلته الليلية عقلى، حتى بدأت أتسائل .. هل هناك احتمال أن يرفض ذات مرة أن يعيدني لمنزل والدي بعد انتهاء الرحلة؟..

****

فى أول لقاء جمعنا كشفت إلى يوناس مخاوفي وطلبت منه أن يخبر والدي عن رحلاتنا الليلية ولكنه غضب وطفقت نيران عينيه لأول مرة أمامي، وأشتعلت حدقتيه بحمماً أرعبتني، وتمتم بكلمات صارخة وكأنها خارجة من بئر عميق..

كان صوته حاد أقشعر له جسدي.. لم أعِ من كلماته شئ سوي أننى منذ ليلتنا الأولى أصبحت ملكه.. وللأبد.

من بعد تلك الليلة لم يفارق ذاكرتي لهيب عينيه وتحولهما المرعب.. بت أخشى من غرفتى أو النوم بها حتى لا ألقاه. جال بخاطري أن أقص على أبي ما يحدث فهو يحبني ويحميني، لكنه كل ليلة كان يعود من عمله متأخرًا بعد أن أكون قد غفوت و نقلتني والدتى لغرفتي، ويحضر يوناس لكي يصطحبنى لعالمه. حاربت النوم ذات ليلية حتى عاد والدي وعندما بدأت أروي له حكايتي، نهرتني والدتى لأكف عن كذب واجبرتنى للجوء لغرفتي حتى لا أزعجه بثرثرتي الفارغة.

مرت الأيام وازدادت تحذيرات يوناس من كشف علاقتنا أمام بنى البشر.. فتشبث عقلى بنفس الفكرة وأصبحت متوقعة أنه ذات ليلية لن يعيدني لدار أبى ابًدا..
عزمت أمري وقررت أن أحكى لوالدتى لعلها تسمعني هذه المرة.. وربما تعلم كيف تحميني من يوناس..
ذهبت إليها.. ووقفت أمامها لبرهة أستجمع قواي وأفكاري، وتلعثمت أثناء شرح الأمر ووصف ماهيته.. منعتنى أمي من الاسترسال فى باقى أكاذيبي كما أطلقت عليها.. تركتني فى هذه اللحظة وانهمكت فى الأعمال المنزلية متجاهلة كل محاولاتي للحديث إليها..
ألححت عليها وكررت محاولاتي كى تسمع منى باقى الحكايات لعلها تقتنع، وأصبحت ألاحقها فى كل مكان وأسرد عليها أجزاء منها، فحذرتني للمرة الأخيرة من الاسترسال.. حاولت أن اشرح لها أني لا أكذب وأن ما أحكيه حقيقة أحلامي اليومية.. فتركتني وأسرعت للهاتف وحدثت صديقتها الوحيدة ثم جدتى ومنها انتقلت لخالاتي إلى أن أتى موعد التلفاز بفقراته من طبخ ومسلسلات لتشغل باقى يومها حتى عودة والدي ليلاً..

لم أيأس وعاودت الكرة في اليومِ التالي وتحديدًا عندما اقتربت ساعات الليل من العروجِ وقلبي بدأ يدق فزعًا مما سوف أجده ليلاً لو غفوت عيني.

أقسمت لوالدتى بصدق حديثٍ وأني أريدها أن تحميني من الضياع عن منزلنا.. فغضبت مني بشدة واعتقدت أني أريد ترك المنزل والهروب منه.. وأمسكت حزام والدى ولقنتني درس قاسيًا به.. و ادخلتنى غرفتى وأغلقت الباب من الخارج بإحكام وهي تصرخ بأنه يجب أن أبقى مع الأشباح حتى يأكلون عظامي هذه المرة لأكف عن الكذب.

كدت أموت من الخوف والظلام.. قضيت ليلة سوداء من شدة الخوف والبكاء بينما اتخيل الأشباح حولي فى كل مكان.. قضيت وقت طويل وأنا اصارع الخيالات التي رأيتها في الظلام وكنت أظنها بالفعل أشباح قادمة لتأكلني.. ولم أجرؤ على النوم حتى الصباح خشية من عقاب يوناس لو نمت بعد ما أخبرت أمي.. ولكن الذي لن أنساه ابدًا هوانقطاع رابط الأمان الذي قد جمعني منذ ولادتي مع هذه السيدة التي ظللت باقي العمر أدعوها بأمي.

****

لم أشارك فى الرحلات المدرسية منذ التحاقي بالدراسة، تلبيةً لرغبة "يوناس".. هو كان يفضل اصطحابى لأى مكان يخطر ببالى بدل رفقتي للبشر عديمي النفع كما يعتقد..

كالعادة لبيت أوامره، حتى ذلك اليوم الذى أصرت "رؤى" صديقتى ونحن بالصف الرابع الابتدائى على اشتراكى فى رحلة لمحافظة "المنيا" وبالتحديد قرية تدعى "تونا الجبل" والتي سموها "تاونس" فى العصر الفرعونى، ولقبت "تحنت" أيام الرومان.

وافق "يوناس" على ذهابي مع مجموعة من البشر لأول مرة، حتى يثبت لى أنه لا يحتكرني لنفسه، ولكنه كان قد خطط لهدف جديد يضمن به عودتى بشكل كامل إلى قلاعه بمنتهي قناعتي الذاتية.

ذهبت مع رفقاء دراستى، تجولنا بين رمال صحرائها الناعمة وزرنا مقبرة شهيدة الحب "ايزادورا" ابنة حاكم الإقليم فى "العصر اليونانى" التي عشقت شاب مصرى وغرقت وهى تعبر النيل للقائه خلسة فرثاها والدها بقصيدة كتبت باليونانية على جدرانها.

شاهدنا مقبرة "بيتوزيرس" الكاهن الأول للإله، وسيد الأشمونين حيث تشبه دور العبادة المصرية وقد خصصها له ولأبيه ولأخيه. دخلنا السراديب والأنفاق حيث "جبانة الآله تحوت" إله المعرفة والحكمة (القرد والطائر أبو منجل)، وتنقلنا في متحف يضم بعض المقتنيات المحنطة لهم. كما زرنا "الساقية الرومانية" وهي أضخم صهريج مياه فى مصر فى هذا العصر حيث شيدت الساقية تحت الأرض لتطهير القرد والطائر المقدس أيبس.

الرحلة لم تشبع فضولي بمعلومات جديدة فقد سبق وأعلمني "يوناس" بأكثر منها. طلبت منى "رؤى" البقاء معى بالقرب من الحافلة. وافقت ولم يعترض المشرفين ايضًا وغادرونا لرؤية باقى المزارات مع الطلاب.

غفوت تحت ظل شجرة وحيدة وسط الصحراء القاحلة، فظهر "يوناس" بخلجات محتقنة غاضبة أخافتني وأشار للمغارة التي رحل إليها زملائنا. رأيت طفل يرتدى بلوفر أحمر يتسلق لقمة المغارة الضيقة دون أن ينتبهوا له، فشهقت مستيقظة بوجه شاحب ابحث عنه.

شاهدت "رؤى" ترسم على الرمل بالقرب مني.. فقصصت عليها حلمى باكية.
نصحتني بالانتظار حتى يعود الجميع ونتبين الأمر.
بعد عودتهم لم أرى الفتى صاحب البلوفر الأحمر فأسرعت لمدرستنا "علا" وأخبرتها بضياعه ومكان العثور عليه. كانت صدمة الخبر أكبر من أن تسأل عن مصدره فأسرعت للمدرسين وأحضروا كشف الأسماء واكتشفوا صدق حديثى فعادوا بصحبة المشرف للمغارة، وعندما جن الليل لمحناه عائد بصحبتهم، فصعدنا الأتوبيس للعودة مهللين.
ومع بدء انطلاقة أجلستني مدرستى بجوارها. مسدت شعرى متسائلة عن كيفية معرفته بمكان زميلنا ولم أكن بصحبتهم؟ التزمت الصمت حتى دب اليأس بقلبها فتركتنى، وعدت لمقعدي أفكر بـ "يوناس" منبهرة بقدرته على حل المشاكل مهما بلغت صعوبتها وتأكدت أنه الوحيد القادر على حمايتى، فلم أفكر فى إعادة الكرة والسفر بدونه لأي مكان ولا شعرت بأهمية وجودي فى عالم البشر وهكذا فاز بثقتي الكاملة كما خطط وأعتقد.

****

فى بوتقة الحياة تكمن الأسرار..
ومع زحف الزمان ينقشع الثرى عنها..
لتظهر للعيان واحدة تلو الأخرى.

تسرب لجفوني تحت سطح القمر ليلاً "رؤيا" على فترات متفاوتة كانت تارة مبشرة وتارة منفرة. أربكني تحقيقها. فبت أخاف مما وراءها ومع تكرارها اهتديت للبوح ببعضها لأصحابها فإن تقبلوها أكملتها، وإن أنكروها توقفت.

أنتشر خبر صدق رؤياى فهاب وجودي البعض وابتعدوا، وأعتبرها الآخرين ملكات أنعم الله على بها وطالبوا بخصهم بأحدهم. ولكن لم أكن أختار فهى "رؤيا" تأتي وتتحقق تخص البعض فقط وليس لى يد فيها ولا سلطان.

بمرور السنوات كبرت ملكات فأصبحت أشعر بصفاء قلوب وسريرة المحيطين من خلال التركيز فى بؤرة عينهم فتسرى الطمأنينة بداخلى نحو البعض، وأختنق ممن تمكن الشر بقلوبهم و افحل.
حاولت الاعتياد على الفئة الأخيرة لأن كل منا يحمل بداخله الخير والشر بنسب متفاوتة، تقل وتزيد بعلاقة طردية مع المواقف الحياتية المواتية ليظهر الأثر فى ردود أفعالنا، وبالرغم مما منحتني إياه هذه الملَكة من نعمة الحكم على الأشخاص من مجرد نظراتهم إلا إنى وقفت صامته دومًا أمام نظرات واحد فقط.. نظرة كان خلفها ألف حاجز يمنعوا سبر أغوارها.. وهى لـ"يوناس".

****

الضياع الثاني

" صديقى العاشق "

منذ حادثة عقاب والدتي لم أجد إلا يد "يوناس" الحانية تداوى آلامي وتمسح دموعي، حتى من قسوة والدتي وشدتها الدائمة والتى كانت واثقة أنها لازمة لكي تحسن تربيتى.

أصبحت أطيع يوناس بدون جدال، بعد أن وجدت لديه حنان لم أجده عندها، على الأقل هو لم يؤذيني كما فعلت بى، كما أنه أغرقني بالدلال فأقتربت منه وابتعدت عنها.

أشبعنى "يوناس" ترحالاً ورغب برفقتى دائمًا فأصبحت بيتوتية بناءًا على طلبه، أجلس طوال النهار أناشد حضوره حتى يجمعنا المساء ونبدأ رحلتنا التي لا تنتهي. أسرتني مفاجأته المختلفة والتى ساعدتنى على التمييز بين أقرانى فتناسيت شعورى بالنبذ من أسرتى، وأكتفيت ب"يوناس" والتفكير به وقربه وحياتي معه، وتخيل أحداث مغامرتنا القادمة. علمنى "يوناس" خلال أيامي الدراسية أسرار زميلاتى واشيائهم المفقودة ومكان العثور عليها فتميزت بينهما منذ نعومة أظافري بقدرات خاصة.

وهكذا استطاع "يوناس" رويدًا رويدًا الزحف لقلبى وغلفه بحبه حتى تملكه وحده بدون منازع.

****

مع أول خطواتي للمرحلة الثانوية تغيرت ملامحه الطفولية وملامحي، وكما ارتديت ثوب الأنوثة، تأنق يوناس بصفات الشاب الوسيم جدًا المهلكة للفتيات، وكما كبرت قدراتي الخاصة تغيرت نظرة "يوناس" نحوي، فتحول من صديقى الدائم لعشاقى المتيم، وكما جذبني سحر رحلاته منذ الصغر، ذبت بين تلابيب عشقه فى مراهقتي، وضعت بين جفنيه الحالمين ببريق مشتعل غذى أنوثتى الوليدة.

سبحت بلا تفكير فى شلال دفئه، وتقلبت مع روعة موجاته، ورست دقات قلبي على شاطئه حتى أُعلن لحظة سقوطي من قمة شلال على صخور صماء.. لتكون بداية الفارقة في حياتي.

قضيت ليالى أستيقظ منتفضة متعرقة أرجف من تلك النظرات الشغوفة التى باتت تستفيض بنوايا خبيثة تكتم أنفاسي و تكاد تزهق روحى.

أصبح "يوناس" مأخوذ بجمالى، مجنون بعشقي، زاحف بسُلميات أنامله على سلاسل شعرى بهوس دائم، يسحرني برقته وهمساته حتى اللحظة الفارقة من التناغم الحسي، فلا يستطيع التحكم فى هيئته البشرية وينقلب لمسخ أسود ضخم، فانتفض هاربة من أحلامى متشبثة بكل عزم بالرحيل.

غضب "يوناس" من تمنعى عنه وأنا عاشقة صبابته،

وهددنى تارة، ودللني أخرى، وقيدنى من جديلتي الطويلة بجذع شجرة محترقة، وألحق بجسدي الكدمات، حتى خدر اطرافى وشل حركتى للوصول لرغبته.

لم يمنع عذابه الليلي سوى تحصني بالاذكار قبل النوم، فأنا أعشقه ولكن أكره أذاه، أريده جواري وأرغب في رحيل أهوائه، فكان للأذكار رادع لعقابه بعض الوقت، وبقي هو متربص للأوقات التي أنساها فيحضر ليعيد الكرة ويبدأ في حيلة جديدة من حيله.

طلبنى "يوناس" بلهفة عاشق محموم للزواج، على الرغم من إيقانه بأنى له منذ أن وقع صك امتلاكي منذ الضغر، ولكن جاء طلب زواجنا حتى يريحني فقط واستسلم له كليًا، ولكن منعني من الموافقة، صورته الممسوخة المخيفة وأنيابه البارزة، فظلت مطبوعة بذاكرتى، حتي أصبحت أخشى اقترابه واهدده بالقرآن والأذكار لأمنعه من أحلامى نهائيًا إن أجبرني عليه.

ولكنه كان يعلم جيدًا مدى عشقي له وأني لا أملك متعة الرحيل عنه، فكان يبتسم ساخرًا بصمت، متربص للفرصة القادمة من أجل أن يشبع ظمئه.

مع تكرار اغراءاته وهمساته العاشقة المتيمة، فكرت فى عرضه لزواجنا، وحبه الذى اعترف من داخلي بأنى لن أجد مثله عند أي إنسان من البشر.

وبما أن لكل منا عيوب فقد وعدني يوناس أن يخفي عيوبه عنى، مقابل استمرار حبي له وإتمام عقد زواجنا أمام جميع عشيرته ليكونوا الشهود بدلاً من البشر، وفى كل الأحوال هو يملكني ولن يقبل بأن يشاركه فى أحد.

فكرت كثيرًا بحديث يوناس واعترفت بأنه حبى الوحيد ولن أقبل بغيره بديل، ولكن قبل أن ينال مني صريح الموافقة، عاد لي وصدمني بأحكام قبيلته المجحفة، وطلب عشيرته بأن أقوم بتنفيذ أوامرهم التي كانت كارثية.

رفضت جميع شروطهم، فعاد يوناس لهيئته الممسوخة المخيفة، التي تظهر عندما يغضب أو يفقد سيطرته على نفسه، وأصبح غير قادر على التحكم فيها بعد أن أخجلته أمام قومه وهو من كان يقوم بتربيتي حتي يقدمني إليهم بكل فخر وإعتزاز.

عاد الخوف يتشبث من جديد بجوانحي، تارة من يوناس وأخرى من عائلته، ومن صعوبة قيودهم وأحكامهم وطلباتهم التي لا يرضاها أي دين، ولكن بدون مقدمة أو

أسباب عاد يوناس يغرقني في دلاله وحبه بدون أي شروط، وعاد يطلبني للزواج بعد أن قبلت عائلته زواجنا بدون هذه الشروط.

ذهلت في البداية ولكن مع تبريراته المقنعة وإلحاحه سعيت لوهلة مستفسرة عن إمكانية قبول عشيرة مثل عشيرته بي بدون اي شروط.

قرأت عدد من الكتب، وبحثت عن إمكانية حماية نفسي منهم أو ما مدي إمكانية أذيتهم لي مستقبلاً، وخاصة بعد أن أكون زوجة فرد أحد أهم افرادهم الذي خالف القوانين من أجلي في يوم من الايام.

صدمني جدار الواقع وأنهارت معه كل أحلام السنوات، بعد أن اكتشفت "حرمانية" هذا الرابط الذي كنت أظن أنه سوف يجمعنا، وأن أقوي عثرات حبنا هي مطالب عشيرته، بدأت في البحث بكل جهد عن أي طريقة لإتمام هذا الزواج وإنقاذ هذا الحب الكبير، ولكن اكتشفت أن ارتباطي به قد حرمه الإسلام، وأن زواجي من يوناس يعد حرام بسبب اختلاف طبيعة خلقتنا، وأنه لا يجوز لي أن اتزوج إلا أنسان من بني البشر.

****

ليالي كاحلة السواد عشت فيها بعد أن أصبحت الحقيقة لدي كاملة، وأنه لا يمكن أن أرتبط بحب عمري إلى الابد، شعرت بالحزن الشديد وأن شمس حياتي قد تغيب، و أقسمت بكل عزم واصرار، أني لن أتزوج بشرى إلا لو كان شبيه ليوناس فى كل شئ، يحبنى مثل حبه، يفهمنى كتفهمه، يدللني مثل دلاله، وربما يكون لله حكمه في ذلك، حتى لا يكون لي زوج يتحول لصورة مفزعة كلما غضب أو اشتهاني، ويصبح عندي يوناس ولكن في هيئة إنسان.

منذ هذه اللحظة، حاربت رغبات "يوناس" المحمومة بالتحصين اليومى بالأذكار حتى أتقى شره، فغاب عن أحلامى كثيرًا حتى أطمئن وأنسى تحصين نفسي، ثم يحضر فجأة مع جيش من الكائنات الدميمة يلحقهم ثورات عقابه.

يحيطنى بالعقارب التى تخرج مهرولة من طيات ملابسه، بخلاف الحيوانات المسعورة التي تظهر من خلفه، وأقضي الليل بينهم وأمام عينيه يقف ليري عقابي، ويري كيف اتباعه ينهشون جسدي حتي تسيل منه الدماء.

وخلال النهار كنت أموت من شدة الصداع الذي أوشك ان يصل بي إلى مرحلة الهذيان، وكل هذا كان ضريبة امتناعي عنه.

استمر حالى هكذا لمدة ليست بالقصيرة، وتدخلت أمي في معاناتي بإجباري على زيارة الدجالين معها والخضوع لطلباتهم بدون فائدة، حتى توقف "يوناس" عن عذابي الليلي ذات يوم فجأة، وعاد إلي وحيدًا بدون جيشه، وطلب مني أن نعقد هدنة بيننا، فنحن متحابين فى النهاية مهما نكرنا أو رضينا ومهما عاندته لابد لي من الخضوع له في النهاية.

كان شرط يوناس لعقد هذه الهدنة أن لا أعود إلى قرأة الأذكار أو العودة إلى التحصن بالقرآن قبل زيارته، لأن هذا يعذبه بشدة كما كان يفعل هو وأعوانه معي، ووعدني أن يقوم هو بحمايتى من جميع قبيلته وأعوانهم، كما اعتدنا من البداية.

وعدني يوناس أنه سيغرقني فى نعيم عشقه مرة أخرى

ولن يجبرني على الزواج منه وسيترك لي مطلق الحرية لو رغبت أن أتزوج أخر وقت سوف يطلق سراحي وأكون حرة، وبما أنه اخترق قوانين عشيرته من أجل حبي، وأنا ايضًا كل أمنيتي أن أعيش حياتي بقربه فلن يكون هناك رجل غريب ليفرقنا مهما حدث.

عدت إلي يوناس بمراهقتي المشتاقه لدفء احتوائه ورحلاته، خبأت قصيدة عشقه بثنايا الروح، ودعوت الله سرًا أن يجمعنى به كإنسان بشرى، أو يحوله كإنسان كما أري في الأفلام، ونتزوج ونكمل حياتنا سويًا.
لم أكف عن دعائي سرًا، فقد شغف قلبى حبه، واستحل قلبي بطيب معاملته، ومن المؤكد أنه لن يحل محله سوي شخص مثله، ينتشلني من غرق مشاعري بيوناس لأغرق فيه هو وفقط.

****

فى إحدى همسات الليل أثناء غفوتى، رأيت حلمًا جديد، كنت أجلس فيه على كرسي فوق مكتب فى أحد الشركات الكبرى، منكبة على بعض الأوراق أعمل بجدية حتي شعرت بخطوات تقترب مني.
رفعت عيني بتلقائية نحو الصوت الذي اخترق إنشغالي ووجدت يوناس يقترب حتي وقف أمامي بهدوء بينما عينيه تحمل نظرات مبهمة، لم أصدق عيني في البداية، ولكن قبل أن أتحدث معه تركني وغادر المكان بأكمله بدون أدني كلمة.
استيقظت متعرقة كعادة احلامي بيونس، ولكن لم أتذكر باقى تفاصيل الرؤيا ولا حتى اسم الشركة ولا مكانها، وعلى الرغم من انقباض قلبى من الحلم إلا أنه كان نقطة تحول بحياتي كلها وبشكل جذري، أعطاني أمل كبير جعلني أتمسك به بإستماته وأصبح تحقيقه هو شغلى الشاغل.
في أول لقاء جمعني بيوناس بوحت له برؤيتي كما
اعتدت، فكاد أن يؤذيني من جديد فاعتذرت عن حديثي ووعدته بالتخلي عنها نهائيًا.

ولكن على الرغم من محاولتى لم أتمكن من ترك حلمي الكبير بوجود من يشبه يوناس في هيئة إنسان ليشاركني باقي أيامي وإلى أخر العمر، خبأت أمنيتى بجعبتى وجعلتها هدفي فى الحياة وعزمت على تحقيقها بصمت.

ومن جهة أخرى، بمجرد من إنتهائي من المرحلة الثانوية طرق العديد من العرسان بابنا، كانت فرصة ذهبية لوالدتى لكي تتفاخر بين الجميع بأنه يدخل بيتنا عريس كلما خرجت ابنتها من باب المنزل.

ولكن ما حيرها أن منهم من غادر بدون عودة وبدون إبداء أى أسباب ايضًا، ومنهم من رفضته بدوري من البداية بحجة استكمال دراستى، وقد ساندنى والدى فى رفضي لهم لصغر سنى، إلى أن أتى إلينا خاطب ذات يعمل ضابط فى أحد المدن الساحلية، يملك من

الرفاهية ما سال له لعاب والدتى، ودعمها آراء النسوة

من حولها للتمسك به وحتي إجباري على هذه الزيجة، وعزز آرائهم أن جمالى يستحق مثل هذه المعيشة المترفة، والعريس لم يكن ينقصه سوى عروسة فاتنة لتكتمل بها أناقة صورته الاجتماعية.

حاولت والدتي إجباري فعليًا ولكن كيف أقبل به وحب "يوناس" مزروع بقلبي منذ الصغر، وحلمي الوحيد أن أجد مثله بشري وأتزوجه.

رفضت بإصرار كل محاولتها لإقناعي فحولت حياتى لجحيم، وسبت عنادى واتهمتنى بالإعجاب بنظرات الرجال المنهالة على من كل صوب. حاولت مواجهة حربها لإجباره على الزواج بالعناد والرفض واتهمتنى بمرافقة الرجال كسبب مستتر لرفضى للخطاب، ولكي أثبت براءتي عليا القبول بالعريس.

وقف أبي بحزم لأول مرة أمام والدتى ورغبتها فى أستغلال جمالى وتزويج لشخص يحمل سطوة السلطة والمال، كاد الأمر يصل الانفصال بينهما، حتى وافقت أمى على صرف النظر عن زواجى حتى الانتهاء من دراستى أو على الأقل حتي يأتي من اقبل به على مضض.

****

دخلت الجامعة واخترت التخصص الذى يقربني من تحقيق حلمى في العمل بالشركة التي حلمت بها والتي أصبحت هي بداية ونهاية طموحي، كما رأيت بالحلم القديم لعلى أجد فيها "يوناس".

اجتهدت فى أخذ الكورسات خلال دراستى الجامعية لتذليل العقبات أمامي حتى تخرجت منها، أعترض أبي في البداية على فكرة عملى، لكن إصراري على ايجاد "يوناس" كان كفيل بإعطاء القدرة على إقناعه.

أهداني القدر أولى أحلامي وتم قبولي فى أحد فروع إحدى الشركات العملاقة التى تجمع تحت سقفها مجموعة من الوكالات لشركات استيراد الأدوية.

كنت ناسية أو متناسية موقف يوناس من عملي بعد أن علم هدفى الحقيقي من وارئه، وفي المساء هرولت للقائه وكدت أطير من فرط حماسي.

درت حول نفسي أمامه كطفلة سعيدة بفستان العيد، أخذت أقفز بين بساتان النخيل وكادت أطرافي لا تلامس الأرض فرحًا وأنا أروي له مشاعري وأعيدها واكررها أمامه وأوصف له سعادتي بتعييني وعملي الجديد، ولم أنتبه لسعير عينيه حتي أعتمت عينيه بسواد قاتم، ما لبث وتحول للهب مخيف وأعلن صوته بخرير مرعب رفضه التام.

دق قلبي بجذع من هيئته، وعدت أؤكد لنفسي بعناد أنها فرصتي الأخيرة للزواج منه، ولن أتخلى عنها مهما غضب، ففي النهاية سوف يري أن رأيي هو الصائب.
أبتعدت خطواته فجأة بدبيب مدوي فانشقت الأرض إلى نصفين فاصلة بيننا، بينما صوته يوصلني معلنًا رفضه التام أو النهائي لعملي، كما امرني بالبعد منذ هذه اللحظة عن البشر وأن أعود إلى خلوتي السابقة وعدم الإحتكاك بالناس وأكتفي به.
رفضت وبشدة أوامره فهي فرصة العمر التي حلمت بها لسنوات كيف لي أن أتركها بهذه البساطة، فضربني بسوط وهمي أشعل الألم بجسدي، ثم نعتني بالخيانة لأنى بشرية، فهتفت به متناسية حقيقته التي أصبحت أعتادها حتي النسيان، وأنه مثلي بشرى، فرفض حوارى ساخرًا من غبائى.
غافلة عما يدور في الفلك حولي حاولت القفز إلى النصف الثاني من الأرض الذي يقف عليه لكي أقترب منه واقنعه بالقبول ولكن استوقفتني نيران صعدت بقوة من باطن الأرض تكاد تصل لعنان السماء من الشق الأرضي الفاصل بيننا، فصرخت متراجعة للخلف فعادت النيران إلى مقرها واختفت فجأة، ولكن امتلأت الفجوة بدل عنها بحمم بركانية تنافس حميم عينيه التي تفور غضبًا.
سقطت علي الأرض من هول ما أرى، فتجاهل يوناس خوفى وأكمل طريقه راحلاً، صرخت بأسمه مرعوبة من فكرة بقائي وسط هذا الجحيم بمفردي فرفع ذراعيه للأعلى وزمجر بكلمات غير مفهومة صدح صوته بها في أرجاء المكان وعاد صداها التكرار، فخرج من باطن الأرض هضبتان بينهما طريق جبلى ضيق.
وقف يوناس للحظة والتف ناحيتي بوجهه وقال بشراسة مخيفة وهو مازال يوليني ظهره

_ خيوط اللعبة بإيدي وعشان فكيت أسر سنين

وخالفت القوانين، بس كان شرط القبيلة هو حمايتك

ونارك، افتكرى دلوقت يا إنسية إن البادى أظلم.

وتحرك ليكمل طريقه قبض السراب على ظله فاختفى بين الجبلين كالبرق ولم يتبقى بجعبتى إلا قلباً واجل.

كشمعة انطفى ضيها عدت لأرض الواقع، تهاوت فوق تلال الحب حائرة، أمسك صبارها، واجرح بأشواكها، فالحب قدر محتوم وقد غرس بين جذوري منذ المهد.

****

الضياع الثالث..
"أطراف مملكتك"

مع بدء كل شفق.. أسرع لأطراف مملكتك.. أختبئ فى ركن قصى وراء بقايا ظلك.. أشتكي وأسقط أوجاعي بنهر ذكراك.. أغتسل بدموع الفراق.. وابتلع الوجع بأكمله.. دون إثارة أي ضجر..

تحولت سعادة الأيام إلى كوابيس، وأضحى خروجي من لعنة عباءة يوناس صعب المنال، أصبح ليلى حفلة خاصة للشياطين وأشباههم، وعذابي يبدأ مع مغيب كل شمس، تصدمني خيالات وحوش ضارية ووجوه كالحة تتراقص على أطراف الستائر شاهرة أنيابها تريد التهامى، وكسا خضرة حوائط غرفتى السواد القاتم، وأصبح أختفاء أشيائى بدون سبب عادة فى حياتي، أيام قضيتها أستنشق الكوابيس ليلاً أو الجاثوم يحل ضيفًا على صباحى، وسقوطي مغشيًا على فور انتهاء كل حفلة شيطانية تحت أقدام أبي وأمي، بالإضافة إلى الكدمات التي أدمت جسدى، كما أن سوء حالتى النفسية وحزنى جعلونى ابتعد عن صلاتى المتقطعة من الأساس، حتى تركتها نهائيًا رويدًا رويدا.

بدأت والدتي فى السؤال عن المشايخ والدجالين من جديد، كما بدأت في الذهاب لهم بمفردها بعد أن رفض أبي ذهابي معها. أقنع عدد منهم والدتي بوجوب زيارتي، ومع إلحاحها وافق والدي على سؤال من هو صاحب علم يستشيره.

نصحه أحد أصدقائه بأحد المشايخ الدارسين فى تلك الأمور، والذي كان لا يتقاضى مال ولا يفعل شئ من أمور الدجل وكل علاجه كان بقراءة القرآن والنصح

به فى إطار دراسته العلمية والدينية، وذهب إليه والدي ايضًا بمفرده واستفسر منه عن الأمر واستمع جيدًا لجميع نصائحه وعاد ليطبقها كما علمه.

بعد زيارة أبي لهذا الشيخ بدأ كل ليلة بتحصيني بنفسه بالأذكار ومسح جسدي بها، وعاد ليقرأ القرآن علي جبهتى ويدعوا كما كان يفعل في أحد الأوقات منذ زمن، ولكن ما صدمني هو إكتشافي إنى نسيت الكثير مما حفظته منها، وبالأستمرار رحلت عنى هذه العذابات بالفعل، حيث أن ذكر الله لم يعد ينقطع من البيت ليلاً ولا نهارًا.

منحنى توقف عقاب أتباع "يوناس" أمل ساذج فى رضاه بالأمر الواقع وتخليه عن الانتقام منى ولم أتخيل يوميًا ما كان يرتبه لى القدر من صدمات جديدة لتغير مجرى وفلك حياتى القادمة.

****

أستلمت العمل ومضت الأيام يوم يتوكأ على الأخر لتتبخر آمالى فى العثور على شبيه "يوناس" بأرض الواقع ، حتي تساءلت.. هل سأجده أم كنت أعيش وهم؟

وإن لم أجده هل سيعفو عنى ويعود ليملأ أيامي

فرحًا وترحالاً، أم أن اللهب في عينيه كان نذير شؤم؟

أخرجتني "ميار" زميلتى من شرودى اليومى، و تساؤلاتي الحائرة بصلف، لتخبرني بحضور مدير الحسابات بعد إنتهاء إجازته الطويلة. وقفت بالقرب من باب المكتب خلف "نجلاء" لأرى "الرجل الغامض" كما يلقبونه، حتي لمحت دخوله من أول الممر وصدمتي منعت باقى همساتهم أن تصلني حتي مر أمامنا بثقته المعتادة وخطواته الخيلاء.

خصني بنظرة غامضة لمحت فيها ثورة ووعيد كامن رأيت مثله من قبل، واستكمل طريقه لمكتبه بهدوء. الصدمة شلت حركتي بينما هتف عقلي فرحًا غير مصدقًا بأن "يوناس" ها هو قد عاد..

بقيت للحظات مصدومة، ولم استوعب بعد أن يوناس مر بالفعل أمام ناظري، حتى صرخ عقلي بـ لا.. لابد أنى مازلت متوسدة وسادتى أتجول باحلامى وهو قد قبل بأمنيتي وعاد من جديد لحياتي ووافق أن يسامحني مرة أخرى، إذاً سأتشبث بالحلم للنهاية وأغمضت عيني طوعًا، وافترشت الأرض غافية بسلام.

استفقت من غيبوبتي على توبيخ ميارو صراخها

_ يا أختي كل ده عشان تلفتي نظره! بس تعبتى نفسك على الفاضى. نهرتها زميلتنا نجلاء بعتاب فأكملت توبيخها حانقة وهي تنصرف متمتمة بباقي كلماتها اللاذعة، ساعدتنى هالة ونجلاء على النهوض، واعتذرت نجلاء على أسلوب ميار.

كنت أستمع لهم بشرود بينما عقلى يسترجع الأحداث، وعينى تود التهام الباب الخشبى الذى يقف بشموخ حائل بيننا. لم أصدق أنه مر أمامي بنفس تفاصيله الجذابة، وضجيج هالته المهيب، ولهيب نظرته الغامضة والتي يقبع خلفها ألف حاجز يمنعني من اختراقها.

****

من بعد لقائنا الأول توالت الأيام مملة فى غيابه، ممتعة بحضوره، كفيلة بإرباك حواسي، وأصابت أطرافي بالبرودة بقربه، فاكتفيت بمراقبته لاتشبع بالحلم الذى أضحى حقيقة.

عرفت فيما بعد أن أسمه "أدهم"، وكنت أتمني أن أصرخ بالجميع بأنه "يوناس"، حب حياتي ومالك قلبي ومن بحثت عنه لسنوات بين البشر. كان أدهم يشبه يوناس كثير

فهو مثله طويل، عريض المنكبين، ذو بشرة سمراء، وشعر ناعم بشكل عجيب ويتدلى بعض منه على زوايا جبهته، فيقوم برفعها بنظارته الشمسية القابعة دوما وسط صدره محمولة على أول أزرار قميصه، بملامح حادة تفصح عن قوة طباعه منذ الوهلة الأولى.

تغلغل أدهم بيسر لنبض قلبى، فاحتل رتبة "يوناس" عشقًا، عندما أراه يجن عقلي وأود أن أصيح للعالم بأن هذا باكورة حبى منذ الصغر بينما قلبى يتحلى بالخجل وينتظر إشارته.

****

كنت أعمل بجوار ميار عندما دخل "أدهم" المكتب لأول مرة مع "مُحَمَّد" زميلنا، لمحنى فرفع حاجبه الأيمن بتأنى ساحر متسائل بصمت عني دون أن يحيد بنظرته عن وجهي. لقطت ميار سؤاله فأسرعت بالقول

_ دى "آيات" شغاله معانا من فترة قريبة.

_ قومى سلمى على "البص" ولاعايزاه يغضب عليكِ؟

قالها مُحَمَّد بزجر مبطن وإبتسامة صفراء، فطوق "أدهم" كتفه مداعبًا

_ ايه يا مُحَمَّد؟ كده الآنسة تأخد فكرة وحشة عنى؟

_ لا طبعًا يا بوص، دا حضرتك مثل أعلى لينا.

_ ايوه كده ارسمنى قدامها.

قالها "أدهم" مقهقهًا، وشد طرف لياقته بغرور ثم هز رأسه بإيماءة لا مبالية محيياً، و ارتدى نظارته الشمسية فزادته تألقًا، ثم نظر نحو لبرهة وهو مازال محتفظًا بإبتسامته، وودعنا دون أن يعيرني اهتمام آخر وانصرف.

فور خروجه هتفت ميار حانقة على غروره وغطرسته، وأتبعها اعتراض مُحَمَّد على صمتى وحذرني من طوفان "أدهم" إن لم انتبه لتصرفاتي معه. كتمثال من الشمع كنت أحدق ب"أدهم" وفى حركاته ولفتاته وعندما غادر صحبته روحى مودعه فأخيرًا نظر لعيني، ووجه الكلام لى، ورحب بوجودى، وأصبحت فى مرمى بصره وعرف إننا عدنا ولن نفترق كما قرر ذات يوم.

****

"العشق"

هو سيمفونية منسقة تُعزف بين ناي و جيتار.. تتقافز فيها نبضات القلب لتناطح بواسق السحاب.. لتصدح برعد وبرق.. يتساقط كسيل العارم بين الضلوع.. برقة قوس قزح...

لأيام طويلة ظلت ابتسامتى لا تفارقنى، ولم يعكر صفوها إلا تجاهل "أدهم" لوجودى، لكن لم يكون هذا عائق أمام ثورة حبى السرمدي. مرت الأيام وازددت ولعى بجلساته الدائمة مع العاملين.

كنت اندس بين الموظفين أسترق السمع للحروف الخارجة من شفتيه حتى تقتنصني نظراته الحارقة لجوانح قلبى فارتبك واشيح وجهى خجلاً. أكملت تدريبى فى قسم المخازن حتى إنتهى أول دفتر خاص بكتابة الإيصالات أعمل به.

ذهبت لنجلاء أستفسر عما أفعله، فردت بانشغال:

_ اديه لميار وخدى واحد جديد وهى تتصرف فيه.

ذهبت لمكتب ميار ولم أجدها، فانتظرها، ودلفت إحدى العميلات وسألت عن "أدهم" وعندما أخبرتها بوجوده طلبت الدخول إليه وهي متعجلة.

ترددت فى الدخول إليه وتذكرت إنه لو لم يكن هناك عمل سينصرف وحسمت أمرى. اضطربت دقات قلبى مع طرق باب مكتبه لأول مرة فحاولت احتوائها.

دخلت بعد اعطائى الأذن، وأخبرته بوجود العميلة، ووليته ظهري وقبل أن أعود أدراجي وأخرج من محيطه أوقفنى سؤاله الغاضب عن وجود ميار.

حركت كتفي بعدم المعرفة فظل صامتًا شاردًا لوهلة وعينيه تنظر لعيني. لم أفهم نظرته ولا سر شروده لكن دقات قلبي بدأت في القفز، ابتلعت ريقي وعدت انبهه بعد أن ساد الصمت بيننا للحظات قائلة:

_ أدخلها؟

_ مين؟

قالها مشوشًا فأبتسمت معقبة

_ العميلة.

أومأ موافقًا برأسه بينما عينيها مازالت غائمة خلف شروده، وقبل أن استدير مرة اخرى دخلت ميار وخلفها العميلة، وبدخولها فزعنا جميعًا لصيحة ميار الغاضبة لتدخلي فى عملها.

حاولت مرتبكة كمن مسك بالجرم المشهود تبرير الأمر، بينما إلتزم أدهم الصمت وعينيه أصبحت لا تحمل أي معني لأي شئ. بررت موقفي في بضع كلمات ثم ابتسمت متوترة واقتربت من ميار وجذبتها معي للخارج بلطف، وبمجرد ما أغلقت باب المكتب خلفنا نفضت ذراعها من كفى بحدة، وكادت أن تحرقنى بنظراتها.

اسرعت قبل أن تقذفني بوابل من صراخها قائلة:

_ دا الدفتر القديم وعايزه واحد جديد.

ألقت ميار بدفتر جديد على مكتبها بأنفعال، ورفعت

حاجبها الأيسر بتحدى لو أعترضت، فآثرت السلامة وأتقاء للمشاكل وأخذته بصمت وخرجت. نظرت لمكتب أدهم نظرة أخرى، وأنا ابتعد متسائلة داخلى بحيرة عن سر نظراته وشروده.

هل بالفعل هو "يوناس" ويداعبنى بإدعائه عدم معرفتى؟ هل أختفى من أحلامي بعد أن أمر أتباعه بعقابي؟، أم استسلم لوجوب وجوده كإنسان في حياتي حتي نستمر سويًا؟، هل هو من كان يعاقبني في الفترات الماضي أم أحد يشبهه أرسله أفراد قبيلته؟، هل بالفعل قبيلته استغلوا غيابه وأنزلوا العقاب واللعنات على ولم يصدهم عنى سوى تحصينات والدي؟، أم أنتهت كوابيسي وسأبدأ عهد جديد على أرض الواقع مع حب عمري يوناس بشروطه الجديدة وحياة دائمًا تمنيتها؟، أم أنه مازالت هناك مكيدة تحاك من خلفي وستظهر بمرور الأيام؟.

****

مع أنبثاق يوم عمل جديد.. أثناء تسجيل بعض الإيصالات بإهتمام وتركيز فى دفتر اليوميات أنحنى "أدهم" علي مكتبى فجأة فصرخت فزعة. ابتسم وعينيه تتجول على ملامحي بجرأة ثم سكنت حدقتي واستقرت بهما وبادر قائلاً

_ إزيك يا "آيات" عاملة إيه؟ مش "آيات" برضوا؟

_ آه "آيات".

نطقتها وأنا أحاول أن الملم بعثرت نبضاتي فأكمل قائلاً ببهجة

_ مبسوطة معانا؟

_ الحمد لله.

انتصب ببطئ في هيئته وعينيه تتجول في المكتب سريعًا من حولي بينما يتمتم بلا مبالة مفاجأة علي نبرته

_ أنا داخل مكتبى عايزة حاجة؟

شكرته بفرحٍ فعاد بعينه من جديد ليمسك بنظرتي نحوه للحظة، بينما بدات ابتسامته تتسع رويدًا رويدًا، ثم رفع كفه في غرور وأشار به مودعًا، بعد أن وصلني وعد عينيه بشئ خفي أستقبلته بأمل وترحاب.
بعد خروجه جلست أستنشق شهيق العشق، وزفير الغرام المحملين بضجيج عطره الذى غلف الكون حولى وسبح بأوردتى فتنفسته بنهم.

****

مضت ثلاثة أيام دون أن تتكحل عيوني برؤيا "أدهم"، وفى اليوم الرابع بعد إستظلال الحياة بظل شمسها كنت أقف بالقرب من باب مكتبى فسمعت صوته معاتبًا برقة لوقوفى أمام كاميرا المراقبة. ابتسمت واشرت للكاميرا بترحيب فعاد لها قائلاً بحنق

_ شوف ناحية تانية يا أحمد. تفاجأت بتحرك الكاميرا للجهة الأخرى.

_ ايه ده هو فى حد غيرك بيشوفها؟

_ دي متاحة لأعضاء مجلس الإدارة والمديرين بالإضافة أن فيه ناس شغلتها بس المراقبة.

تفاجأة بكلامه واستدركت غبائي وعقلي يذكرني أن أدهم ليس إلا أحد المديرين، وربما ليس لديه كلمة المرور الخاصة بالدخول إلى الكاميرا من الاساس، تركته خجلة من رعونة عقلي تحت عزم أنظاره الوامضة بتفكير.

****

مع بداية أسبوعٍ جديد تفاجأنا بغياب ميار. رفض الجميع العمل مع "أدهم" خوفاً من غضبه الذي يربكهم به في بعض الاوقات، ورشحونى كبديلة لها عندما أتخذت صفه كالعادة مؤيدة ومدافعة عنه.

قبلت التحدى والوقوف أمام حممه البركانية، وتركتهم ودخلت مكتبه فوصل لمسامعى صياحه فى أحد الموظفين فأرتجفت أوصالى خوفًا وتذكرت كل كلماتهم عن حالات غضبه.

مع حضور أول عميل وقفت أشجع نفسى، وتبخرت شجاعتى على عتبة مكتبه ولم أجد من أستغيث به، طرقت الباب بحذر، فاجاب أدهم بحده. دخلت متمتمه.

_ عميل.

أدخلت العميل بدون إنتظار رده وخرجت مسرعة فاصطدمت بالخارج بنجلاء وسؤالها عن تناول أدهم لمشروبه الصباحى "النسكافية"، فقلت ببلاها

_ نسكافية إيه؟ محدش جاب حاجة.

_ دا بيدخله أول ما يوصل، طيب هقول لعم حسن، وابعتهولك.

انطلقت دون كلمة أخرى، بعد ما زادت ربكتى. وحضر العامل بعد3 دقايق، وقال:

_ يا أستاذة النسكافية أهوه، بس الله يكرمك بلاش أدخله، أنا غلبان ومحتاج كل قرش فى مرتبى وهو النهاردة متعصب ومحدش يضمنه.

رق قلبى لحاله فحملت الكوب منه وطرقت الباب ببطء شديد. رد "أدهم" بنفاذ صبر فدخلت بإبتسامة مرتبكة وقلبى يعدو خوفًا. وضعته بطرف المكتب وأسرعت بالإختفاء من أمامه.

بعد نصف ساعة خرج أدهم يناطح الهواء ومعه بعض الأوراق وتوجه لمكتب آخر فدلفت مكتبه الذى نال من عاصفة غضبه ورتبته سريعًا. عندما عاد أدخلت الكارت الخاص بالعميلة التالية، فقال آمرًا

_ خليكى معانا.

إنصعت لأمره وأدخلتها وجلست على المقعد أمامها. صوبت العميلة أنظارها تجاهى، فتجولت بنظرى فى أرجاء الغرفة بلامبالاة حتى قطعت الصمت قائلة

_ منتظرة حاجة يا أنسة؟

ابتسمت بلزوجة، وعقدت ذراعى أمام صدرى وقلت

_ ابداً.. بس ميصحش أسيبكم لوحدكم.

ظهر الغضب على قسماتها، وبدأت قدميها بالإهتزاز وسألت "أدهم"

_ عايزة أعرف الطلبية وصلت ولا لسه؟

_ مش أختصاص القسم هنا.

_ طيب عايزة أتفق على طلبية جديدة.

_ أكيد الإستعلامات فهموكِ تعملى كده إزاى.

أطلقت زفرة غاضبة، ونهضت جاذبة حقيبتها بقوة، وخرجت. على أثر خطواتها أطلق "أدهم" ضحكة مجلجلة فاجأتنى، فهمست بداخلى متنهدة هل آن الأوان للجن الثائر بداخله أن يرحل؟ وقف قائلاً

_ أفحمتيها.

_ لأنه الصح.

_ تم.

_ يعنى ايه؟

وقف ودار حول المكتب واستند بجزعه عليه وعينيه التى يقف خلفها الف حاجز تمنعنى قراءة ما يدور بأعماقه تلتهمنى

_ يعنى الباب مش هيتقفل عليا مع أى واحدة ست تانى، وبلغي ميار بالكلام ده.

خجلت من نظراته، ومطه لبعض الكلمات، وقلت بتلعثم:

_ ممكن حضرتك تبلغها؟ يعنى عشان متقلش وقفت يوم وطلعت بحاجة جديدة.

تنهد وأقترب هامسًا

_ حاضر هبلغها.

ابتسمت وقد أزاح حمل من على كاهلى فعاد لمقعده وقال:

_ على طول مبتسمة كده؟

_ الإبتسامة فى وجه أخيك المؤمن صدقة. وده كلام الرسول ﷺ.

_ عليه الصلاة والسلام. طيب ممكن لما تشوفيني بلاش تبتسمي قدامي. عايزك كده.

مط شفته كالأطفال فنظرت لملامحه بشوق وقفز قلبى المجنون بعشقه الذى لا يتوب، وهو يبعثر كيانى ويجمعه بهدوء فبادلنى النظر بنظرته المفعمة بغرامه منذ الصغر ليصرخ عقلي مقسمًا أن الذي أمامي هو يوناس وليس شبيهه ابدًا.

حاولت لملمت شتاتى لأبتعد، فنادانى بهمس أذاب ما تبقي من صلابتي، رفعت عيني نحوه فكرر حركت شفتيه مرة أخرى.

تعالت ضحكاتى سعيدة بكل ما يصدر منه ثم هربت من أمامه مرة أخرى.

إن كان بى مس من الجنون.. فحبيبى هو مصدره..

لا تسألوا عاشق عن سر ضحكته..

ولا تبحثوا خلف تنهيده خارجه من بين ضلوعه..

ولكن تعلموا فلسفة الكون فقط من شروده...

****

الضياع الرابع

"اقتراب محظور"

فى صباح اليوم التالى ألقيت بثرى النوم عن مخدعى، أديت فرضى، ارتديت ملابسى، وذهبت للعمل. فوجئت فور وصولي بطلب ميار أجازة أسبوعين لتريح أعصابها من ضغط العمل، تجاهلت الأمر لبعض الوقت ولكن مع أقتراب موعد وصول "أدهم" سألت بإهتمام

_ شوفتوا سكرتيرة بديله لأستاذ أدهم بدل ميار؟

نظرت نجلاء نحوى بطرف عينها، وابتسمت بمكر وقالت

_ ونشوف ليه وإنتي موجودة يا جميلة ؟

_ حرام عليكى دا ربالى الرعب امبارح.

تعالت ضحكاتها على صرختي بينما اتكأ مُحَمَّد زميلنا على الباب يراقبنا بفضول. فقالت نجلاء

_ أهوه نسأل مُحَمَّد عن رأيه مين يمسك سكرتيرة مع أستاذ "أدهم"؟

_ "آيات" طبعًا.

قالها بكل ثقة فنظرت له بصدمة، فربتت نجلاء على كتفى وهى تكتم ضحكتها وقالت

_ اتفضلى يا حلوة ربنا معاكى.

غادروا وتركونى بين شقى رحى حبه والخوف منه لكن أبا قلبى الابتعاد، فتحملت عواصف القرب وذهبت لمكتبه. قمت بترتيبه وقبل انتهائى منه دخل أدهم بثورته قائلاً:

_ بتعملى إيه عندك؟

_ أصل ميار أخدت أجازة فقالوا لى....

_ آه طبعا ما الشركة شركتها تغيب، وترجع

بمزاجها. أنا حذرتها كتير على استهتارها ده بس مفيش فايدة. روحي بقي يا شاطرة قولى للي قالولك... إنى مش عايز ميار في القسم هنا معايا تانى.

أومأت بالإيجاب، وأسرعت بالهروب من أمامه. بعد قليل حضر العامل بالنسكافيه وطرق علي باب أدهم طرقتين، فرفض "أدهم" السماح بدخوله قبل أن يعلم حتى من الطارق. ناشدنى العامل مستنجدًا خوفًا من غضب "أدهم" الذي سيترتب عليه تقديمه لشكوة فيه وبالتالي سوف تقوم الإدارة بالخصم للعامل.

تملكنى الغيظ من دكتاتوريته فتناولت الكوب بحده، واندفعت ألى باب المكتب وقفت أمامه لبرهة ثم تذكرت ثورته الغاضبه فبدأ الجبن يعود إلى جوانحي ويسكنها مرة أخرى، وبين خوف وتردد اتخذت قرارى وفتحت الباب بهدوء شديد. ووجدت أدهم جالس مستريح خلف مكتبه موليني ظهره يدخن سيجارته ومن هيئته استنتج أنه شارد في أمر ما.

تسللت بخفة ووضعت كوب النسكافيه على المكتب. وقبل أن أنتصب في وقفتي انتفض أدهم من مقعده زاجرًا ومعنفًا حتى سالت دموعى. صمت لحظة ثم افتر ثغره عن بسمته المهلكة هامسًا:

_ إيه ده بتعيطي؟، أمسحى دموعك يا طفلة.

ابتعدت أكفف دموعى خارجة من أمامه فهمس بأسمى ولكن بطريقة مشاغبة فنظرت له. مط شفته بتبرم كالأطفال، فابتسمت لذكرى الأمس وعاد ليبتسم هو.

الحب..

هو أجمل مراوغة نحياها بكامل ارادتنا، مجبورين، واعدين، متواعدين، عاشقين، معشوقين، طالبين، مطالبين، عطائين، مانعين، راغبين..

بدون خيانة.. بدون شروط.. بدون توقف..

هذا هو الحب وهذه لذته، نريد ويريدون، نكابر ويكابرون، ونظل فى صالة الأنتظار مجبورين راضين..

****

فى اليوم التالى دخل "أدهم" مكتبى متعجلاً وقال:

_ "آيات".. النهاردة عندي شوية شغل فى الفرع التانى، هاتى رقمك ولو حد سأل عليا بلغينى.

_ آسفة مش هينفع أديه لحضرتك.

قلتها بثقة وتجاهلت عجلته، فأشعلت اللهب بمحاجره. تراجعت للخلف عندما بدأ هو في الأقتراب حتى باتت أنفاسه تلفح صفحة وجهى، وهمس بغضب وهو يجز على أسنانه

_ أنا عايزه.. عشان أتابع الشغل معاكِ من هناك مش عشان سواد عيونك العسلية دى وعقاب ليكِ هتتصلى إنتى بيا، ودورى على رقمى بقى ، ويا ويلك لو حد جه ومكلمتنيش. أومأت بخوف عدة مرات فابتعد. وضع هاتفه فى مخبأ بنطآلة ثم رفع ابهامه وسبابته فى شكل مسدس مهددًا بقتلى إن عارضته ثم رحل. ....

_ مالك حصل إيه؟

قالتها نجلاء فأنفجرت فى البكاء بين ذراعيها. قصصت عليها ما دار بينى وبين "أدهم" فربتت على كتفى:

_ معلش هو كده لما بيتعصب تتوقعى منه أى حاجة، وبعدين هنا المديرين يا "آيات" معاهم أرقام الموظفين عشان الشغل، ويا حبيبتى لما يجيلك عميل بلغينى وهتصلك بيه.

إرتجف قلبى من تهديده الصريح فرفضت. شدت نجلاء وجنتى قائلة:

_ معاه حق بعيونك العسلية دى، يا بنتي إنتي جايباهم من أين.

ابتسمت لمزاحها وتذكرت أدهم ونظراته وشروده بهما وفي النهاية تهديده لو تكاسلت عن تنفيذ مطلبه.

****

فى اليوم التالى وقف "أدهم" أمامى رافعًا إحدي حاجبية بتحذير فإزداد ريقى وقبل أن ينطق قلت بإرتباك:

_ والله أخدت رقمك من نجلاء، بس محدش جه خالص.

أمتدت أنامله بجرائه لهاتفي المستكين أعلى المكتب وضغط على بعض أزراره فدق هاتفه، وتخللت إبتسامة منتشية شفتيه وترك هاتفى بزهو منتصر وغمز بإحدى عينيه راضيًا ثم انصرف. نظرت لسرابه بإندهاش وهو يتجول بين جدران قلبى يتحكم ويعبث ويحطم بأريحة مخضرم بمملكته، وقضيت أيامى متأرجحة بين مزاح "أدهم"، وجديته، وغيابه العاصف، وحضوره المربك دون أن أرسوا على بر.

****

مع الأيام أقتربت من "أدهم" أكثر وأكثر.. بت اشبهه فى تصرفاته وأرائه حتى ملامحى باتت تشبهه. بدأت الهمسات من حولنا تتكاثر والسؤال عن وجود صلة قرابة بيننا نخفيها.

ضحكت على تكرار نفس الأسئلة بنشوة وأخذتنى قدماى لأخباره عن سعادتى بأسئلتهم. دخلت مكتبه فحادت عيناه عن الأوراق متسائلاً عن وجود عملاء.

أومأت بالنفي فعبست ملامحه وأنطلق قائلاً بحدة

_ فاكرة نفسك جاية فرح يا أنسة ولا إيه؟ إتفضلى شيلى اللي في وشك ده.

_ بس وشى مفهوش حاجة.

نطقت بها بينما أمسح على خدي بأناملي، ظل على نفس نظرته الغاضبة، فدب الشك بأوصالى. مسحت وجهى بمحرمة ورقية وقدمتها له كدليل لصدقى، فأراح ظهره علي المقعد للخلف متنهدًا:

_ عارفة، يا ايات.. من وقت ما طليتي علينا وانتي عاملة زى نسمة هوا هبت فى عز حر الصيف. رمشت بعدم أستيعاب، وهدهد قلبى غزله، فحلقت فوق عنان السماء، وزادت نبضاتى بنبضة لم تولد إلا له، تركت المكان ضائعة بين طرق عشقه منتشية بوجودي بجواره واقتراب الرابط الذي سيجمعنا كما حلمت دومًا.

****

ألبثنى "أدهم" ثوب الحيرة بعد عدة أيام عندما انفردنا بمكتبه قائلاً بحزن

_ ياريتنى قابلتك من زمان.

أنقبض قلبى والتزمت الصمت باحثة عما يرنو إليه؟ فإنى أرى قربى مباح وأمضى قدمًا أسابق نسمات الهواء لأصل إليه. فلما دخلت كلمة – ياريتنى– وتسللت

سياق الأحلام؟ ظل "أدهم" شاردًا طوال هذا اليوم وفى نهايته خرج من مكتبه وتأكد أنه لا أحد بالجوار ثم أقترب ونظر بعينى حتى امتلأ الكون من حولى بضجيج صمته، فغزا قلبى إنفراج شفتيه هامسًا

_ يمكن لو كنت قابلتك زمان، كان حاجات كتير اتغيرت. دلا بدلوه وخرج وتركنى أفك طلاسمه بدون خريطة. أستشهد بعينيه لأصدق أحساسى، فتكذبنى كلماته وأتجرع الحيرة من نفس الثغر. تمنيت التسلح بالجراه للإستفسار عن مقصده، لكننى أضعف من تلقى صدمة تلوح فى الأفق. تجاهلت الأمر عن عمد فكل أسلحتى سخرت له منذ زمن، ولن أستطيع مبارزته لإستبقاء عشقى.

****

إلتهم الزمن الأيام فمرت سريعًا وعادت ميار للعمل. قابلت خبر نقلها بوابل من السباب على "أدهم". وزاد الأمر سوء أن القسم الجديد ترفض العمل به منذ زمن. تسائلت لأستوضح سبب إعتراضها فأسترسلوا بشرح بواطن الأمور حتى أنبثق أمامى عالم جديد ينحصر بين "التربح، والسمسرة، والإستغلال للمرضى والمرض".

تمتمت مصدومة:

_ لو وصل اللي بيحصل للإدارة تبقى كارثة؟

_ هما عارفين ومطنشين لأن الموضوع في الأخر نفع واستنفع.

_ أستاذ "أدهم" عارف بالكلام ده؟

_ أستاذ "أدهم" هو اللي علمنا نعمل كده إزاى. شدى حيلك بقى انتي وراكى جهاز، وجواز، وعايزة مبلغ فى البنك يسندك. قطعت إسترسالها برحيلى كارهة كل من يحمل مثل هذه القلوب القاسية ويتلاعب بأوجاع الناس بدون رحمة. وكأن عقلى

ينقصه عبثًا فوجدت ميار بالمكتب تجمع أشيائها. عندما تقابلت أعيننها أستعر الحقد بها

_ مليتى دماغه خلاص؟ قولتيله إيه عنى؟

_ ولا حاجة. أجتمع بعض الفضوليين على صراخها وقالت إحداهن:

_ بصراحة معاه حق انتي كل ما يزيد الشغل تغيبى، وهو حذرك قدامنا. وضعت ميار كفيها بين جنباتها وقالت:

_ يا أختى هو يلاقى أحسن منى، بكره يندم.

رمقتنى بكره، وحملت صندوق محتوياتها وخرجت ودبيب حذائها الغاضب يصم الأذان. تفرق الجمع كلاً يهمس بما يجول بخاطره، وجلست أصارع أفكارى وشعرت بأنى سقطت أسيره بين شباك العناكب ومخططاتها حتى ظهر "أدهم" قائلاً بمرح:

_ يا صباح الورد والياسمين على أحلى عيون ربانى.. تعالى.

قال كلماته ورحل قبل أن أعترض على مغازلته، جمع الموظفين فى مكتبه وطلب للجميع مشروبات باردة إحتفالاً بإنتهاء مشاكله. امتلأ المكتب بصخب الضحكات، وأعتذر "أدهم" عن سوء معاملته لبعض الأفراد فى الفترة السابقة.

ذهلت لمشاركة ميار للتجمع، وإطرائها على "أدهم" وذكائه وكأن ما حدث منذ دقائق لم يكن منها. بعد إنتهاء الحفلة البسيطة عاد الجميع لعملهم وهتف "أدهم":

_ "آيات" إستنى.

وقفت فابتسم قائلاً بدفء:

_ شربتى حاجة ؟

_ آه. شكرًا.

أضجع للخلف ووضع كفه تحت خده وقال مبتسمًا:

_ عايز أعتذرلك بشكل خاص عن إسلوبى معاكِ.

_ ولا يهمك. المهم لما تلاقى نفسك هتقلب قوللي عشان الحق ميار.

_ وأهون عليكى تسيبينى وأنا اللى فكرت خلاص لقيت اللي تتحملنى؟

_ خلاص أديني منتظرة هنا طالما ما وصلناش للضرب.

شبك أصابعه تحت ذقنه وقال بحنان أسرنى:

_ وكمان متوقعة أضربك؟

_ أنت مشفتش نفسك وأنت متعصب، دا.. دا أحيانا بحس إنك هتقوم ترمينى من الشباك.

نهض وهو يحرقنى بنظراته المتيمة واقترب مني وهمس:

_ أنا ممكن أرميكِ، بس فى حتة تانية.

علا طنين قلبى خجلاً، وأوشكت روحى على فقدان الوعى أمامه وشعرت بأن أقدامي لم تعد تستطيع الوقوف أمام موج هواه، فاكمل بشغف:

_ أحنا ما شفناش بعض قبل كده؟

إنتفضت بفرحة أتوق إليها منذ زمن، وابتعدت بصمت من أمامه بينما تركت روحى أسيرته، حائرة بين البوح بما عشناه سويًا أو الأنتظار ليخبرنى هو اولاً بما يخفيه بقلبه؟

****

الضياع الخامس

"انكشاف المستور"

حضرت عميلة فى العقد السابع من عمرها تتوكأ على عصاها. بطبيعتى أشفق على كبار السن من الأمراض التى تنهشهم بلا رحمة. قمت بأتمام بعض الأجراءات الخاصة بها بينما انتظر بمكتبى وعندما حان دورها ساعدتها فى الدخول. تمسكت بكفى وأخبرت "أدهم" ممتنة على حسن صنعى معها بدون مقابل ثم عادت لوجهى قائلة:

_ روحى يا بنتى ربنا يكرمك باللي يصونك ويبعد عنك ولاد الحرام.

خجلت من سماع "أدهم" لدعوتها وشكرتها، فنقل "أدهم" نظراته بيننا وقال:

_ حضرتك مش أول واحدة تدخل تشكر فيها، مش عارف بتعملكم ايه بره.

ثم طوقنى بنظرة غريبة لم أفهمها لكنها أربكتني كأنى أقترفت أثم. بعد خروج العميلة تسائل "أدهم" بمواربة عن سبب امتناعى عن أخذ الأموال من العملاء نظير خدماتى. كالصفعة كان سؤاله، فكيف ل"يوناس" أن يشك فى تربيته لى؟ تسرب لى بروده المستفز وإلى متى سيتجاهل ما بيننا؟ فقلت:

_ أعتقد بأخد مرتب على شغلى ده ومفيش بند فى العقد بيسمح إني أخد رشوة.

قلتها وضممت شفتى بحنق، فأطلق لعينيه الحرية لتأمل ملامحى حتى تبدل غضبى لخجل من نظرته.

خرجت مرتبكة محاولة أخفاء نسيم السعادة عن ثغرى وعقلى يخبرنى أنه فقط يجرى بعض الأختبارات قبل خطبتنا رسميًا.

****

مع أستئذان أخر خيوط الشمس للرحيل وحلول الليل كضيف كريم سعيت لإرساء جفونى بغرفتى، ومع دقات منتصف الليل رن هاتفى فأجبته بنعاس.

عبرت نبرة "أدهم" على صوان أذنى فشحذت أنتباهى. تملكتنى مفاجأة أتصاله فى هذا الوقت، ومرت همساته على سمعى ناعمة، فسرت بشراييني وارتفعت معها دقات قلبى. صرح "أدهم" بأنجذابه لى بشكل لم يذق حلاوته من قبل وكأنه عاد فتى غر بوجودى، فغصت بين ضلوعى من فرط سعادتى.

تحدثنا سويًا لقبالة الفجر وأغلقنا الهاتف على وعد باللقاء بعد ساعات بالعمل.

حضر "أدهم" باكرًا وابتسامته المشاغبة المرحة لم تفارقه. عندما أنتهينا من العملاء جلسنا سويًا بمكتبة. تحدثنا وضحكنا كثيرًا ولم نشعر بمرور الوقت.

عاد ليسألنى ثانية عن ما إن كنا تقابلنا من قبل. أكدت له بأننا لم نتقابل فحسب بل أننا قضينا العمر سويًا. تمتم مستفسرًا بحيرة لم ألحظها مع شدة حماسي للحظة مصارحتنا، قصصت عليه حكايتى مع "يوناس" ما بين رحلات وسفر وحبه ودعوة صادقة بأن يصبح واقع بحياتى وكيف يشبهه، وأنى متاكد أنه "يوناس" بصورة بشر بالفعل كما حلمت دومًا.

ظل "أدهم" يستمع بملامح خاوية بدون أى ردت فعل وعندما أنتهيت طلبت أن أسئله عن سر يخفيه من ستة سنوات ويخشي معرفتي به. رد بتفكير

_ ست سنين؟ اممممم يمكن لما إتجوزت.

تهاويت مكانى بصدمة، واحتضر قلبى بطعنة غادره وتمتمت

_ اتجوزت؟

_ دى بقى مش محتاجة سحر ولا شعوذة كل الناس عارفين.

قالها بأستهزاء، فهززت رأسى بالرفض لواقع لم

يخطر ببالى للحظة وبصوت خرج من بئر سحيق عاتبته مذبوحه:

_ دورت عليك سنين وأنت حتى مفكرتش تستنانى؟

وقف من خلف مكتبه وجلس على منضدة أمامى وأقترب بجزعه قائلاً:

_ "آيات" لو شفتك من زمان صدقينى لا يمكن كنت هفرط فيكِ.

نكست رأسى لأسفل بخذلان وفارقتنى دموعى بوجع. أقترب "أدهم" أكثر ورفع أنامله ومسح دموعى برقة. أغمضت جفونى راغبة فى حفظ ذكرى لمسته بقلبى وعقلى وكل جوانحى.

همس أسمى بصوت منفعل بعواطف جياشة فأنفرجت جفونى بتيه تلقفته عينيه برغبة واضحة.

ابتعدت بقوة واهية عازمة على الهروب فقبض على مرفقى ليمنعنى مقررًا أمتلاكِ بصك غير مشروع. حاولت تجميع شتاتى ورفضت الخضوع لرغبته متشبثة ببقايا عقل أمام حبى الطاحن.

زجرته ببعض القوة الوليدة من المخاطرة التى يدفعنى لطريقها دفعًا فأبتسم متعجبًا لرفضى أقترابه الذي أصبح مشروع الآن له بعد اعترافي بحبه.

باح برعونة مدمرًا سنوات أنتظرته بإخلاص، فإن كان هدفى من وراء أحلامى وخيالاتى قربه، فهو لم يحتاج لها ليقترب. أباح بإعجابه بى منذ اليوم الأول ولكنه فضل مراوغتى ليتلذ بهذا الحب وبلحظات خجلي منه، وها هو يمنحنى مكافأتى ويقترب لكي يمتلكني قلبًا وقالبًا، كما ظن أنى سعيت لهذا منذ البداية.

حاولت التملص من بين يديه والإعتراض على الرغبة الملحة لديه في امتلاكي والتي قاربت على الهذيان، أستنكرت كلماته المسترسلة، فصدمني قوله أن ما يفعله هو

تنفيذ لرغبتى التي سعيت إليها منذ البداية ولا داعى للتمنع بعد أن أعلنت له صراحة عن مطالبي.

ذهلت من فجاجته وأقسمت له بأنه خاطئ وقد أساء فهمي وأن ما قصصته حدث معى بالفعل. فسكت لبرهة ثم ابتسم بغرور غير مباليًا، وأكد أنه مهما كانت الأسباب فالنهاية واحدة وأنني احبه وهذا يكفيه.

إنسحبت بصعوبة من بين يديه وابتعدت عن المكان بقلة حيلة بعدما أشقانى كلامه وصدمني تصرفه وتفكيره، متسائلة كيف ستكون حياتى بدون صفحات عشقه ولكن..

كان ل"أدهم" قوانين غائبة كل البعد عنى، غير معلومة للمحيطين ولكن كافية لأخضاع من يريد لنهجها. بجهل فتحت بوابة الجحيم بإعترافى، وهو لن يوصدها بدوره خلف رحيلى.

بعد قليل وقف "أدهم" أمامى وملامح التأثر على

وجهه متسائل عما أنوى فعله بعد معرفتي بزواجه. أشحت وجهى المكلوم الباكي فاقترب ليقنعنى بالرحيل الآن معه.

هربت منه ومن المكان كله والنار تستشرى بقلبى محملة برغبة البكاء على صدره لأشتكى منه إليه.

كمومياء سلكت الطريق لبيتى هائمة أبحث عن طيفه بين أزقة الزمن. ضائعة ناجية الوجوه فتخلوا عنى. صرخ عقلى رافضًا جمع زهور حبه لأواريها تحت الثرى واعلن إنتزاع ملكيتها. أمتلأت سحب مقلتى بالغيوم فحجبت الرؤيا فأرتطم جسدى بعابر بسيارته . تلقفنى أسفلت الطريق القاسى بترحاب وغبت بأحضانه عن واقعى المرير.

أمتلأ المكان بالشاهدين على سقوطى بين تلابيب الأيام عنوة باحثين عن سبق يضاف لحكايات الزمنحتى انفرجت جفونى فصافحتنى خيبتى فى الحياة المتمسكة ببقايا روحٍ قد سلبت توًا. أنتصبت بصعوبة بالغة وبدأ

يخترق سمعى سؤال بعض المارة عن صحتى؟

للمفاجأة لم يأن جسدى وكأن روحى المغتالة

أستحوذت علي كل الألم.

بحثت عن "أدهم" فى أمنية واهية بأن ما فات كان خدعة، فصافحنى الوهم ساخرًا.

سرت مترنحة والدمع يتقاطر من مقلتى بدون حساب، فأعترض طريقى بعض الشباب مطالبينى بالتنفس والهدوء. اكتشفت أن تنفسى قد توقف بالفعل فى الثوانى الماضية وها قد عاد الأن لرئتى مصحوبة بسعال وشهقات دامعة. حينما عزمت على أكمال الطريق قال شاب:

_ تعالى نوديكِ المستشفى.

نظرت له بخواء فبدأ بعمل بعض الأشارت فتمتمت

_ مش خرسة.

دفع أحدهم بحقيبتى أمامى، فأومأت شاكرة وعندما يأسوا تركونى أغادر. أكملت طريقي لبيتى شاردة وقد تعتق الوجع بقلبى ففاحت قيثارته. والسؤال الوحيد الذي يدور بخلدي كيف سأسير مع قوافى الأيام بدونه وبدون حبه؟

في المنزل كانت والدتى بالمطبخ كالعادة فلم ترى هيئتى المزرية. انسحبت لغرفتى أنثر بعثرتى وأنتحب. بشئ من الألم نزعت ملابسى وتفاجأت بكدمة تحتل جانب وجهى بالكامل تندرج الوانها بين البنفسج القاتم والأحمر وبعض الخدوش على ذراعى، مع

غزارة دم تزرف بداية من ركبتى متخذة طريقها لأسفل بإنسيابية. نظرت للدماء ببلاهة وكأن شريانى قرر مشاركة روحى الملتاعة حتى تلاشت الرؤية تدريجيًا.
صياح والدتى بجوارى نبهنى وكأن مفارقتى للحياة بعد ضياع "أدهم" بالأمر الجلل، ولكن أعادتنى الحياة بتشبثها غير المبرر أمام طبيب يطمئنى على صحتى بكلمات لم توقف نزيف غرام مذبوح. إن كان جسدى يلتف بشاشهم فقلبى مازال ينزف بدون ضمادات. عدت لمنزلى محملة بألام قلبى التى أنفجرت كينبوع حمم مشتعلة لم أستطع ربط زمامها أو السيطرة عليها.

****

مغيبة صامته قضيت ليلى و مازال الذهول يسيطر على عقلى لم أصدق أن ما عشته طول عمرى هكذا ينتهى ببساطة. لما لم يخبرنى "يوناس" بما حدث ويوفر هذا الألم على قلبى. ولما ابتعد وأختفى هكذا؟ هل كان جادًا وأن فراقنا سيكون أبدى؟ لا لن أسمح له بالتلاعب بى.
خضعت لدوامة عشقه لسنوات والأن يريد حدفى للهاوية ويهرب. تحملت عقابه وغضبه بصبر لأنه قدرى المحتوم لكن أكان من شروط قبيلته أخفاء الأمر عنى؟ هل كانوا يتوقعون أنى سأستمر كحلم فقط دون أن أطالب به كحقيقة؟ هل نسوا أني إنسانة ولى قلب ينبض بحبه فقط، فأين لهم بهذه القلوب؟.
والآن ماذا سيحدث بعد ما أكتشفت الحقيقة. هل سيعود
أم يذبح روحى من خلف الظلام؟ توقف عقلى عن الأسئلة لبرهة من الوقت يعيد حساباته ويعقد مقارناته ويحل معادلات ويستخرج الفرق بين اليوم والأمس حتى باتت الصورة أمامه واضحة.

ما يجمع "أدهم" و"يوناس" هو الشكل والغرور والأهتمام بالمظهر الذى خدعونى. والسؤال هنا هل هم من خدعونى أم السعى وراء سراب الحنان والأحتواء منذ الصغر هو من رمانى فى أحضان يوناس ومن بعده أدهم؟ عقدت العزم وقررت النوم متمتمة بكلمة السر لأقابل "يوناس" فى مكاننا الدائم بأحلامى حتى لو أذانى ولن أنتظره ليعود عاشقًا.

****

فى نفس مكاننا المعتاد للقاء وجدت نفسى أقف . دارت حدقتى حولى بأستغراب وكأنها المرة الأولى التى أرى المكان فيها. شاهدت السحاب الحاجبة لضوء الشمس كالعادة، والنخلات الثلاثة منتصبات بشكل مائل كما هما، وحتى الحفرة التى يرتاح بداخلها "يوناس" موجودة بمكانها، إذا لم أشعر بالغربة من المكان الذى قضينا فى أسعد ليالينا نتبادل أطراف الحديث؟

لما أرى المكان خاويًا؟ وكأنه لم يكن قبلة لإنطلاقتنا للمغامرات. لما يضيق صدرى وتستوحش روحى المكان؟ بحثت دقات قلبى الخائفة عن يوناس دون جدوى.

أشتعل الفراغ بصفير موحش، وبدأت الأركان تدور من حولى بينما الأرض ثابته. خفق قلبى وتجمدت أطرافى مع ظهور أشخاص يرتدوا عبائات سوداء تغطيهم بشكل كامل، بقبعة طويلة مدببة من الأعلى سوداء ايضًا تغطى الرأس ولا يوجد منفذ منها إلا للوجه الذى أتضح مع أقترابهم أنه غير موجود من الأساس. أقتربت الرؤوس وتشعبت الشخوص ملتفة فى دائرة من حولى معبأة المكان. رفعوا هامتهم جميعًا مرة واحدة، فاصطدمت بغياب الكفوف

والأرجل ايضًا.

والسؤال الذى طرح نفسه، كيف لمن لم يملكوا رأس أو أبدى أو أرجل أن يعوا بشرًا.

وقبل أن أعى الحقيقة كاملة عاجلتنى قبضة غير مرئية واعتصرت قلبى، وعلا صوت تصفيق منظم حتى صم أذنى، وطلاسم همهات لم أفهما شاركتهم فى قتلى، وفى النهاية تراشقت أشياء مسننة بجسدى فسالت دمائه. أشتدت الآلام حتى تحرر صوتى من الكتمان الإجبارى الذى غلف به، فصرخت صرخة عالية وجسدى يترنح من شدة الألام حتى سقطت أرضًا.

****

أستيقظت متصببة متعرقة لاهثة وقلبى يكاد ينفجر من سرعة دقاته. تلفت حولى برعب، ثم أشعلت الأنارة الخافته فلم أجد أثر لبقايا الكابوس حولى.

استرحت على وسادتى وعقلى يدور فى فلك

"يوناس" وأتباعه. لماذا يصر على إيذائى وأنا حبيبته أم هؤلاء هم قبيلته وينتقمون منى؟ سالت دموعى بعجز وتذكرت ليلتى الأولى التى جمعتنى ب"يوناس".

كانت ليلة رحيل جدتى الغالية. كانت جدتى هى الوحيدة التى تجلس معى تحتوينى وتقص على الأحاجى. وليلة رحيلها كانت ليلتى الأولى لأنام بدون دفء أحضانها. وقتها بكيت وتمنيت لو رحلت معها.

طلبت من والدتى فى مساء تلك الليلة أن تحل محلها وتبقى بجوارى بدل منها، فنهرتنى وقد أنهكها الجلوس فى العزاء طيلة اليوم فكانت تنشد الراحة. بكيت كثيرًا ليلتها وأنا أرجوها لتقبل بنومى معها ولكن كانت قوانينها الصارمة فى كيف تكون تربية الفتيات أبت التدلل.

رفضت نومى خارج غرفتى بحزم. ومع ألحاحى قامت بضربى ثم أدخلتنى غرفتى وأغلقت الباب خلفها وتركتنى خائفة أبكى بجوار الباب فى الظلام حتى غفوت فى سباتى.. وألتقيت ب "يوناس"، وبدأت الحكاية.

والأن

قد رحل "يوناس" فمن يؤنس وحدة أحلامى؟ ويربت على قلبى برحلاته؟ ويرسم الضحكة على وجهى بأبتكاراته؟ ومع زواج "أدهم" رحل الواقع ايضًا.

مكثت عدة أيام بمنزلى حتى تلتئم أصابتى. الجميع تسائل عن صمتى التائه وحزن مقلتى الشاردة لكن مع دقات قلبى الموجعة شُل لسانى عن البوح بمكنوناته.

عاد أبى يتلوا على القرأن والأذكار كالعادة لعدة أيام وأنا أتارجح بين قرائته وكوابيسى حتى هزمها وهدأ بالى وأستقرت غفوتى، وبقيت الألم فؤادى لم أجد لها ترياق.

****

الضياع السادس

"مراوغة"

حاول "أدهم" إضعافى بكلماته المسكرة فقفزت حممها لتحرقنى. حاولت تضيق الحدود التى قام بفتحها على مصراعيها فاستحالت عاصفته إغلاقها.

زاد إصرارى على نكران عشق كان حياة، حتى ذلك اليوم الذى نهضت فيه بديناميكية أعتدتها عندما دق جرس مكتبه. وقفت صامتة مطرقه بنظرى أرضًا، فبادلنى الصمت بصمت.

رفعت وجهى فقابلت نظرة كنت أضعف من تحملها. هذه العيون باتت تشرق لغيرى، فازت بها، وأصبحت ملكها، فهل تركت لى مكانًا للهمس؟ أم بعثت بأشلاء ذكرى لتقهرنى؟ حتى أذى السهاد الأشتياق، وضاعف الحنين الوجع.

أبتعدت عن شق روحى بعد أن دك كل الحصون المشيدة. حاولت الأختباء من أدهم فى كل درب، حتى عاد من جديد ليقف أمامى معاتبًا هروبى فاختنقت بغصتى.

هربت بصمت كعادتي مع منازلاته التي لا تتسم بالرحمة، حتى شعرت بإحتباس بقايا الهواء برئتى إثر نظره أيقظت شوق أثقلنى أخفائه، فأرداتنى صريعة.

ابتعد عنى بعد تأكد من إعلاني لراية الهزيمة فكاد قلبى يقفز خلفه مطالبًا رجوعه بلوعه. وضعت كفى علي قلبى لعلى أثنيه من جنونه فلم يلقى لى بال ولم يتعظ.

دخلت نجلاء برفقة أحد العملاء فوجدتنى أستند على الحائط فى حالة مزرية، فاخرجت العميل على الفور، وصاحت لطلب النجدة. قامت بنزع حجابى،

وفتحت شباك المكتب ووقفت زميلة أخرى ممسكة بأحدى الدفاتر تحركه أمام وجهى لجلب الهواء.

حضر الطبيب بعد ما زاد أختناقى وأوصل شريانى بجلوكوز زوده ببعض الحقن. شيئًا فشيئًا بدأت أسترد وعيى. مال تجاهى وقال بعملية:

_ حمد لله على السلامة. إيه بقى اللي مزعلك؟

أنسكبت منى دمعة تنوح، تلتها أخرى تنزف، فانتصب الطبيب بعد ما تأكد من صمتي، قائلاً

_ على العموم دى أزمة نفسية، ولازم تبعدى عن الإنفعالات. خرج، فدخلن بعض الزميلات ليطمئنوا عليَّ، وأقتحمت الغرفة ميار هاتفة:

_ شفتى "أدهم" البارد؟ رن الجرس وأول ما دخلت عنده قال فين الهانم اللي بره؟ قلت دى تعبت والدكتور عندها، راح حادف علبة المناديل اللي قدامه على الحيطة، وقال ما نقلبها مستشفى أحسن، ومشى من الشركة خالص. شفتى يا ست "آيات" اللي هتموتى نفسك علي شغله، لما وقعتى ولا عبرك. شفتى......

قبضت نجلاء على رسغها، ودفعتها للخارج لتخرس لسانها، بينما عادت دموعى تزحف لتسقى جفاف صبار بقلبى.

****

فى اليوم التالى زارتنى نجلاء بمكتبى وقالت بحنان:

_ عارفة يا "آيات" لو فتحتى قلب كل واحد فينا هتلاقى جواه هموم، واحزان بس زى ما شايفة الكل بيبتسم وعايش حياته. لازم تقولى للدنيا مهما كسرتينى هرجع أقف. عيشى وانسى وقولى يا رب.

بعد أنصرافها شردت فى كلماتها حتى حضرت ميار. سألت عن أحوالى ثم قالت بغموض

_ شوفى يا أختى انتي لازم تاخدى عبرة من اللي حصل. "أدهم" عمره ما شاف إلا مصلحته. أنا بغيب لما يكون فى شغل كتير لأنه ما يستاهلش أتعب فى شغله. شوفى انتي كنتى لسه بتتعلمى وشلتى مكانك بس صدقينى "أدهم" ده ما يستاهلش تتعبى معاه. أوقف ثرثرتها دخول أدهم لمكتبه أمامنا. فقالت ميار بتشفى:

_ شفتى ولا حتى قالك صباح الخير، طيب حتي عاملة النهاردة ولو من باب المجاملة حتي.

ضربتنى كلماتها فى الصميم، فعضدت نواجزى بقهر، فقبضت على ساعدى قائلة:

_ تعالى معايا.

دخلنا مكتب أدهم وأبتسمت ميار له قائلة:

_ إزيك يا "بوص" أخبارك ايه؟

_ تمام. مش بنشوفك يعني يا ميار؟ نسيتينا خلاص؟

قالها بمرح، فنظرت نحوى بطرف عينها وقالت

_ وأنا أقدر، بس "آيات" بدالى أهي ولا ايه؟

تنهد كالمغلوب على أمره وقال:

_ انتي متوقعة إنى ممكن ألاقى زيك تانى.

اعتلت ملامحها الغرور فكسرت كبريائى، وأكملت قائلة:

_ معلش يا "بوص" بكرة تتعلم أصبر عليها.

_ وأنا فى إيدى إيه يا ميار غير الصبر.

نطق بسهم كلماته فأخترق قلبى نصلها. نظرت لملامحه بوجع فمزق نياط قلبى بلامبالاته. عدت لمكتبى أجر أذيال الخيبة وكلامه زاد من نكأ جرحى.

يا طريق الوجع إنك أطول مما توقعتك ...

ترفق بحديثة عهد فى غياهب ظلماتك ...

****

لم يحضر "أدهم" للعمل ليومين متتالين، وبعد منتصف الليل والجميع سابح في أعماق النعاس، أيقظتنى والدتى وصوت هاتفى يصدح فى الأرجاء. تمتمت متسائلة بنعاس عن ماهية المتصل، فردت بحده:

_ "أدهم".

انتفضت من مضجعى وقد زال أثر النوم مع ذكر أسمه منها، وقلت بتلعثم:

_ ده مديرى، أكيد عايز أرتب شغل لبكره؟

انقطع الرنين، فأحتدت نظرات والدتى على إتصاله، وبدأت فى السؤال عن أسباب اتصاله في وقت متأخر. انقذنى من الرد عليها عودت الرنين مرة أخرى، فأجبت بتوتر

_ السلام عليكم.

_ وعليكم السلام. حبيبتى لسه عارف حالاً إنك تعبانة أخبارك ايه؟ نظرت أمامى بإندهاش ورأيت والدتى واقفة تنتظر لتشاهد ما سيحدث، فأطرقت بصرى أرضًا وقلت

_ الحمد لله.

_ عمرى محتاجانى؟

_ شكرًا.

_ ساكنة فين؟

_ ليه؟

_ فى كلام كتير جوايا نفسى أقوله واحنا لوحدنا، وحشتيني يا أيات ومنتظر بفارغ الصبر اللحظة اللي هتجمعنا.

تسألت بضياع (كيف يرانى؟ هل يعتقد إنى إحدى فتيات الليل؟).

_ مالك؟

سؤال والدتى المباغت أفاقنى من صدمتى فنظرت لها بذهول ولسانى عاجز عن الرد بينما سمع "أدهم" صوتها فأغلق الخط مباشرة دون أى أضافة أخرى.

أنزلت الهاتف من على أذنى، فقالت والدتى بحده

_ عايز إيه؟

تدثرت هروبًا من النقاش وقلت

_ الظاهر لسه عارف إنى تعبت فبيسأل عليا.

_ نعم؟.. افتكر يسأل بعد نص الليل؟.. "آيات" إنتِ مخبية إيه عني؟

قالتها بشك فأجبت لأطمئنها وأنا أكذب نفسى

_ يا ماما مديرى إتصل يسأل عليا، عادى يعنى وما تخافيش هو متجوز وعنده أولاد.

تنهدت وقبلت جبهتى وقالت

_ ربنا يكفيكى شر أولاد الحرام يا بنتى، تصبحى على خير.

_ وانتي من أهل الخير.

قلتها بحيرة بينما عقلى يتسائل منذ متى ووالدتى تهتم بما يخصنى؟ كم مرت علي ليالى كنت أجلس فيهم مختفية وحيدة بغرفتى منذ صغرى ولم تكلف نفسها عناء

السؤال عنى، وأكتفت براحتها من مناوشة طفولتى وثرثرتى الدائمة، أم ربما لحادثى الأخير ودمائى السائلة كان لهم الأثر بقلبها وذكرها ببعض الأهتمام بى؟..

ولكن

هل بقى بى ما يستحق الأهتمام بعد أن دمرتنى الحياة؟ تقلبت مفكرة بدعائها.. هل "أدهم" من أولاد الحرام؟ هو يزعم بأنه يحبنى حقًا وربما تصرفاته هذه تأتي لشدة اشتياقه لي. ولكن من يحب يخاف على محبوبته وهو ينتهكنى بأفعاله.

ألم يكفيه عناء بحثى عنه لسنوات عجاف؟ ألم يكتفى بكسر قلبى بزواجه؟ لما لا يدعنى أقتتات على فتات رؤيته ويتناسى أمرى. بعد طول تفكير تلحفت بظلال الليل، وأسبلت جفونى عازمة على أيقاف توغله فلم يعد بي طاقة لأصد حبه المشتعل والذي يقابله شوق أكبر بداخلي.

****

في صباح اليوم التالي، انتظرت قدوم أدهم بفارغ الصبر، ومع دخول "أدهم" مكتبه ولامبالاته لوجودى اندفعت خلفه لأحتج على إتصاله ليلاً، فأصطدمت بصكيك عضلات فكه الغاضبة، حتي أنه هو من باغتني قائلاً بحدة

_ أستاذة ايات ما ينفعش التكشيره دى.

_ مش أنت اللى......

_ انتي سكرتيرتى يعنى يهمك راحتى. إتفضلى على شغلك وعشان ترتاحى همشى ومش شغال النهاردة خالص.

زعق زعقته ورحل، فأستشطت غضبًا من اغلاقه السبل أمامى. لم أحتمل تواجدى وسط أفكارى الثائرة فذهبت لنجلاء بمكتبها. وجدت أستاذ أمجد وميار ومُحمَّد

عندها وتوسطهم "أدهم". قررت العودة على الفور ولكنهم انتبهوا لحضورى.
دخلت المكتب ببطئ والقيت السلام بخفوت فهتف أستاذ أمجد:

_ أستنيتك كتير تيجى تعرفينى على نفسك وما جيتيش يا وحشة. فغر فاهى لجرأته بينما ضحك الباقين بصخب. أمسكت نجلاء رسغى وقربتنى قائلة وهي تغمز لأدهم:

_ دى "آيات". بتشتغل مع الأستاذ "أدهم".

توعدتنى ميار بعينيها وسألت "أدهم" عن رآيه حاليًا فى عملى. رفعت وجهى أتوسله انصافى ولو مرة أمام الناس، مرة واحدة لكي أتمكن من التشبث بها لأذيل عني الأم المرات السابقة وربما أواري بها إنكساري أمامهم.

مط أدهم شفته قائلاً:

_ نوعًا ما أفضل.

وكزه الأستاذ امجد في خصره

_ حرام عليك ده كفاية العيون العسلية دى تصطبح بيها. سيبك منه يا "آيات" وتعالى أشتغلى معايا؟

_ أهون عليكِ تبعدى عنى.

قالها "أدهم" وهو يقترب منى بلؤم فابتعدت للخلف مصعوقة. تحدثت نجلاء من بين ضحكاتها وهي تجذبني جوارها

_ والله حرام عليكم. "آيات" خجولة وما بتعرفش تصد، ومش هتعرف إنكم كدا بتهزروا معاها.

تدخل مُحَمَّد في الحوار وهو يجاور الأستاذ أمجد

_ لأ سيبولى أنا "آيات". إيه رأيك تيجى تشتغلى معايا؟ وهكون زميلك يعنى مش مديرك أول ما أزعل أطلعهم عليكِ.

أعترض الأستاذ أمجد :

_ لأ يا "آيات" أنا مش زى "أدهم" خالص، وبعز البنات وخاصة لو كانوا حلوين قوي زيك.

نظرت ل"أدهم" بعتاب مجروح، فقابلتنى نظرته الباردة الطاردة. أعتذرت منهم لأرتحل، وما إن

وليتهم ظهرى حتى سمعت هتاف "أدهم" المنتصر

_ شفتوا متقدرش تبعد عنى.

_ عارف يا واد يا "أدهم" البت "آيات" لولا أنها فى حالها، كانت وقعت شباب الشركة فى بعض بسبب جمالها.

قالها الأستاذ أمجد بتسلية فعدت لمكتبى مشمئزة منهم وموجوعة من "أدهم". منذ أن علم بحبى وتغيرت شيمهُ كليًا.. أصبح ضال فى هدايته، قاتل على الملأ، منتهك حرمة الثرى فوق قبر عشقى. رثائى دائمًا أن لديه زوجة وأولاد ولا يملك شئ.

لكنه يضرب بظنونى عرض الحائط عندما نجتمع اثنان بدون ثالث، فيهيم عشقًا ويلقى بغزله بثراء ويتركنى بمفردى أعيد ردم قبرى حتى لا تفوح رائحة جثمانه.

****

هكذا هم الرجال

طبع على قلوبهم بالقسوة، ليدمروا صوامع النساء..

ختم على جلودهم بالأنانية، ليستاثروا بعبق الحب..

يملأوا رئتيهم بشذاه، واذا أكتفوا رحلوا..
باحثين عن الجديد، من الصوامع ليحتلوه..
توالت الأيام بنفس الوتيرة ألعب مع "أدهم" دور القط والفار. يحاول اقتناص الفرصة والإستفراد بصيده الثمين لأتارجح بين حب توغل حتى الوجع وبين تمسكى بمبادئي والهروب منه. حتى مل ملاحقتى أو هكذا تخيلت.
بدأ أدهم فى تغيير مسار خطواته ونشر شباكه على كل أنثى تغنت بجمالها. ظهر "أدهم" بمقاليد كنت أجهلها. تارة يتلبس ثوب الرجل الناضج الحنون حتى تلمع عين فريسته بإعجاب، وأخرى يتجرأ بلمس العميلة دون أكتراث لوجودى بلمسات تبدو عفوية ظاهريا بينما لمعة عينه الراغبة بما هو أكثر بت أحفظها.
طلبت منه التوقف عن جرحي بهذه التصرفات طلب أن أعوضه وأعطيه ما يشبعه وسيتركهم جميعًا لأجل خاطري. رفضت طلبه بإصرار فبدأ رويدًا رويدًا بالأستغناء عن خدماتى ومنعى من مرافقة العميلات وخاصة الجميلات منهن.
فى أحد الأيام دخلت مكتبه بغته وكان بصحبته أحدى العميلات، وأصطدمت بقربهما الشديد. جلدنى المنظر كالعادة بلا رحمة وزلزل كيانى وهو يبتعد ماسحًا بقايا أحمر شفاه على شفتيه. أبتعدا أدهم عنها فور دخولى ودار حول مكتبه وجلس بلامبالاة ونظر لعينى بتحدى أن أتفوه بحرف. عدت لمكتبى مشمئزة من ضعفى أمام سلطته على قلبى وروحى.
الخيانة مؤلمة حد الهذيان..
لا توجد كلمات تصفها مهما أستفاضت الأقلام..
ولا يعرف بشاعتها إلا من تذوق مر كأسها..
****

فى اليوم التالى ما أن ترجل "أدهم" لمكتبة حتى أستدعانى وقال ببرود

_ هنفضل كده كتير؟

_ مش فاهمة.

_ بقولك إيه؟ أنا عايز وانتي عايزة بلاش نحور على بعض. صدمت لوقاحته وتكراره لنفس طلبه بعد ما أعتقدت أنى بت خارج حساباته وسط كل هذه النساء.

غادرته متعسرة بزوابع أشباح خيال حبه الماضى متمنية أزالة أى أثر له من قلبى.

زجرت قلبي الضعيف بعنف. من البداية لو لدى قدرة للبعد ما كان أهانني ولا سكنت جحيمه للأن بعد مضى تلك الشهور ولكنى أصبحت كالمدمنة لا أستطيع فراقه. على مكتبى أستراحة هامتى فأسبلت جفونى بتعب.

دخل أدهم مكتبي وهبت ريح محملة بلهيب صحراؤه الجرداء أفزعتنى كأرنب مزعور. أنكمشت من ظلام نظرته المتمعنة بملامحى فقال بوعيد

_ أتمنعى واتقلى براحتك.. أصل التقل صنعة، بس عايز أعرفك إنك أخرك زي بدايتك هتكون معايا.

تركني ورحل.. فنادت صيحة مقهورة بداخلى شطرتنى، فابتلعتها بمرارة ودمعة هددت بالرحيل قسرًا تبعتها بكل أنصياع.

تمنيت أن تزدان السماء بضوء القمر وأسبح فى أحلامى ويظهر "يوناس" بإحتوائه. يكفينى غموض وحيرة فلابد أن يترفق بى ويحضر، ويفهمنى لما أصبح هكذا؟ لكن أين هو؟ أنهكنى بعده. فقد سلبني الحب روحي بعنفوانه ولم يعد بى طاقه للمحاربة.

****

كنت لك عاشقة، وكنت لى لعنة..

تركتنى للحياة خالية الوفاض، على مبعث الحنين..

تركتنى فضعت، وعدت لالقاك، فأصبحت سجينه لعنتك..
تشكلها كيف تشاء وفق أردتك..
عاد "أدهم" يتجاهلنى من جديد فاستراحت أعصابى، حتى ذاك اليوم حين هممت بالأنصراف بعد أنتهاء مواعيد العمل. أقترب منى أمام الجميع وهمس وكانه يفضى سرًا
_ على مكتبى فى ظرف مهم هاتيه وأوعى تفتحيه.
دخل مع شخص أخر حضر متأخرًا لمكتب ليس بمكتبه وأغلق الباب. عدت لأجلب الظرف وبمجرد أن لمسته أناملى شككت فى ماهيته. بحثت عن غيره فلم أجد. أخذته وهممت بالخروج فأصطدمت ذراعى بباب المكتب وسقط الظرف وفتح جزء منه كشف عن عدد من مجلة "ميكى ماوس".
وقفت غير مستوعبة أهميتها فتشابكت الأفكار، وتحررت الظنون، فكشف الشرك المدبر. أرتجفت أوصالى وأسرعت أنظر يمنة ويسرى فأصطدمت بالسراب وقد رحل الجميع.
هرولت للخروج من الشركة ولكنى توقفت أنظر للظرف بيدى. نظرت لساعتى بارتباك وعدت أدراجى ووجود غريب عنا يطمئننى. طرقت الباب فلم يجيب.
أعدت الطرق بحده فلم يعرنى أهتمامًا. أدرت مقبض الباب فوجدته مغلق من الداخل.
فكرت سريعا ووضعت كرسى بهدوء أمام باب المكتب وفوقه الظرف، وأنطلقت أسابق الريح حتى منزلى.

****

الضياع السابع

"إنتهاك الحب"

جمال الحب يكمن فى النظرة الأولى..

البسمة الأولى..

اللهفة الأولى..

ودقة القلب التى تنبض بهذيان فى حضرة كل حرف يقال، لكن تفجر أعترافى بحبه كقنبلة فتحت صمامها بجهل فأصابتنى شظاياها، فسقطت بين نيرانها لتلتهمتنى بضراوة، والكارثة أنى عاجزة عن الأبتعاد عن لهيبها مهما أحترقت.

ثار وهاج وماج "أدهم" لتركى للظرف، فكشفت له بغضب عن معرفتى بمحتواه بغير قصد وكشفى لتخطيطه للأستفراد بى. ازدادت شراسة عينيه ببريق

مخيف وأتهمنى بعدم الأمانة.

مُلأت محاجرى بدموع هوى ضاقت به الأضلع، فنهرنى بشدة وطلب مني التوقف عن مكر النساء ودموعهن الخادعة. سافرت عيناى على صفحة وجهه لعلى أستخرِج "يوناس" من جعبته غصبًا، فلم أجد أثره، فتركت له المكان ضائعة وتائهة كما اعتدت.

أصبح "أدهم" يخجلنى أمام العملاء بسخريته اللاذعة، وأتهامى بالغباء بدون أسباب ثم طردى بأشمئزاز أمامهم، فأعود لمكتبى منكسة الرأس وبداخلى أعاصير هوجاء تريد أن تعصف بهذا الحب فتأتى على الأخضر واليابس.

****

بت كورقة ذابلة بفعل خريفه، ولم أجد مكان للأنزواء من أعاصيره. تكدس العمل وأزداد بشكل سريع فكان "أدهم" مضطر للحضور مبكرًا وقد يظل أيضًا بعد رحيلى. اليوم بمجرد وصولى توجهت لمكتبه لأعيد ترتيبه فوجدته يجلس بإرهاق. تقابلت نظراتنا فبادر بطلب مسكن للألم.

لم أستطع تجاهله كما فعلت فى الأيام الأخيرة كرد فعل لتصرفاته المهينة، فخرجت لمكتبى وأحضرت بعض السندوتشات ليتقوت قبل المسكن فقال

_ بس ده فطارك.

_ لأ فطرت بس ماما بتدينى سندوتشات إحتياطى. مددت كفى بهم، فتناولهما جميعًا داخل قبضته. فتح الكيس بيده الثانية وشرع فى الأكل ومازال محتفظ بكفى وداخله الطعام بقبضته. أقشعر بدنى وقد كشف الغطاء عن نظراته الجائعة ايضًا.

حاولت نزعها فتمسك بها بصلابة أكبر وأبتسامة تسلية شقت طريقها لزاوية فمه.

نظرت للخارج لأستطلع هل هناك أحد يرانا. حاولت البعد وشرارات الخوف تلسع قلبى بدون فائدة. نطقت والدموع تغشى مقلتى بعد

أن لمعت عينيه كذئب برى

_ بالله عليك كفاية كده.

_ عايزانى أسيبك؟

_ آه والله.

تصنع التفكير وأستطرد وعيونه تحوم حول تفاصيلي بجرائة

_ ادينى حاجة حلوة الأول.

_ مش معايا حاجة حلوة والله.

قلتها وعيني على الخارج، فجذبني ليترك وسمه على شفاهي سريعًا وأبتعد منتشيًا.
صفعته بدون تفكير ووليته مغادرة.
بعد قليل دق جرس المكتب مرارًا بدون توقف فرفضت الأستجابة، ولكن خشيت من كلام المحيطين فحملت دفترى ووقفت على مقربة من باب المكتب الذى مالبث وأغلق خلفى.
أقترب "أدهم" مني بغضب فابتعدت مرتعبة حتى لامست أطراف الغرفة. أطبق على رسغى بشراسة فحاولت التملص من برثان قبضته بزعر
_ والله لو لمست شعرة منى هصوت وألم الناس.
_ هتفضحى نفسك؟
كأن المواقف تخرج ما لم نعلمه عن أنفسنا، دنا أدهم منى بإصرار فأشحت بوجهى صارخة. نفضنى بعنف وأشار بإصبعه مهددًا
_ انتي بتلعبى بالنار ومش أنا اللي يتلعب بيه.
كشفت دموعى عن نبض منتهك ضائع ففتح بنفسه الباب واستكان خلف مكتبه قائلاً وهو يمد كفه ويمسك بملف أمامه
_ يا ريت تشوفي قسم تانى تشتغلى فيه أو هتروحى معايا شقتى والنهاردة وده أخر كلام عندى.
دهس قوتى تحت وطأت حروفه وشطر الباقى من
روحى نصفين ولم يبال بحطامى
_ ليه مُصر تعذبنى وأنت عارف إنى مقدرش أعيش بعيد عنك.
_ خلاص يا روحى يبقي نروح سوا النهاردة.

بروحِ ذبيحة، وكرامة تأن كفاكِ ذل عنفت روحى كاكِ ذل وهوان فردت منكسرة لم يكن لى إلا أمنية مقطوعة الرجاء بقربه ورضاه.

صرخت مؤنبة إياها منذ متى كنت ضعيفة هكذا؟ فلا أرى مكانك إلا مسحوقة تحت قدميه، فيتصنع الحب وخلف ظهره معول ليهدمك بدم بارد وستنتهى القصة ببرائة قاتل. ويحك فقد أوشكت بحذفى للهاوية بجنونك فأنت لعنة يجب الوقوف أمامها من الآن.

أغلقت دفاترى كما أغلقت بوابة حبه وأنتظرت وصول المدير العام. جمعت أشلائى المبعثرة، وحملت حقيبتى وتوجهت لمكتبه. طرقت الباب وفتحت طريق نهايتى لأوقع قرار أعتقال حب ليصبح ذكرى وقلت

_ السلام عليكم.

فرد وهو يرتدى نظارته الطبية

_ وعليكم السلام. خير.

_ اسمى "آيات" وشغالة فى الحسابات وبعد إذنك عايزة أتنقل قسم تانى.

وضع كفيه فوق مكتبه بتريث

_ طيب يا "آيات" عايزة تتنقلى ليه؟ متخانقة مع مديرك تحبى أصالحكم.

_ لا لا شكرًا. بس مش مرتاحة وعايزة أتنقل.

فقال وهو يفتح أحد الملفات أمامه

_ خلاص سيبي الموضوع يومين أفكر فيه.

_ طيب بعد إذنك هاخد اليومين دول أجازة.

رفع ناظريه بغضب وأشار بقلمه الذى يتوسط أصبعيه

_ مبحبش الدلع إتفضلى على مكتبك.

جمعت شتاتى بعد أن أجفلنى غضبه وتقدمت من مكتبه ناظرة لحدقتيه بقوة قد أكون نسيتها فى رحلت خنوعى ل"أدهم" وقلت بحزم

_ أنا منتظره حضرتك من الصبح عشان أبلغك قرارى ومش هرجع فيه. لو اتيح ليا مكان فى قسم تانى ماشى، أما القسم بتاعى مش هدخله تانى وشنطتى معايا ولو كلامى دايق حضرتك فى خلال دقايق أستقالتى هتكون قدامك.

رفع حاجبيه بدهشه وصمت لبرهه ثم أستطرد

_ ده الموضوع بجد بقي.

غشت الدموع مقلتى فأبتعدت بصمت، فهدأت نبرته وتسائل

_ ايه اللي حصل؟

بما أن ليس كل ما بالقلب يمكن البوح به فلم أجيب، فتنهد وقال

_ شوفى يا بنتى أنا أعرف الناس من شكلهم. انتي واضح عليكِ إنك بنت ناس والشركة ما تستغناش عنك شوفى القسم اللي عايزاه وهنقلك فيه.

لامس تقديره شغاف قلبى الذى رقت به الأيام فقلت بإنهاك

_ أى قسم مش هيفرق.

قاطعنا طرق الباب ودخول "أدهم" متجاهل وجودى. أقترب يصافح المدير بحراره ثم جلس. رقت دمعة بمقلتى فنظرت لأعلى لأجبرها أن تعود لمحاجرها، فطاوعتنى بأنصياع أدمانى، وعدت إلى محورهم مع بداية حديث المدير العام

_ أهوه يا ست "آيات" مديرك جه بنفسه، ها يا

"أدهم" مزعل "آيات" ليه؟ طوقنى "أدهم" بازدراء نظراته

_ جاية تشتكى منى؟

_ هي ما شكتش، بس مصرة تسيب القسم بتاعك.

أشاح "أدهم" بكفه بلامبالاه وقال متعجرفًا

_ مسيرها كانت هتمشى، الشغل مش بيقف على حد.

أمتصت كلماته ما تبقى من رحيق الحياة بقلبى، وتموجت مرتجفة فى أزقة العشاق، بدون شاطئ يكتب نهاية معاناتى. أنطلق سهم كلماته موجه لصدرى كصفير زمهرير هبَّ فى ليلة شديدة الصقيع، فتقهقرت ارتجف متلحفة بنبض مات بخذلان.

_ لأ إزاى دي "آيات" موظفة شاطرة وإحنا ما نستغناش عنها.

نطق بها المدير العام وهو ينظر لـ"أدهم" بعتاب ثم

خصنى قائلاً

_ شوفى المكان اللي يعجبك يا "آيات" وأنا موافق عليه.

نظرت لـ"أدهم" بأنتصار زائف لحرب كنت فيها أسيرته، ثم أشحت عيني عنه ونظرت للمدير العام وقولت

_ أى مكان يا فندم المهم مرجعش للقسم ده.

أردت أن أبتعد عن مرمى بصره واحتلت صورة نجلاء مخيلتى وعملها الذى أنتقلت إليه منذ شهور فى الدور السابع فتمتمت

_ ممكن ابدل مع نجلاء عز هى شغالة فى الدور السابع، بس مش عارفة رأيها هيكون إيه؟

_ مش صعب عليكى قسم نجلاء؟ أجبت بثبات بالأعتراض ومصاعب الحياة قد رحمها الله بعينى، فقال

_ خلاص أطلعى وابعتيلى نجلاء المهم تكونى مرتاحه.

_ شكرًا لذوق حضرتك عن إذنك.

خرجت وتركت "أدهم" بغضبه بقسوته بعشقى الذابل الذى يتراقص على أنغام ذكرى كلماته، ورحلت كطير جريح يفارق الحياة.

أقسمت يوما ..

إن وجدتك سأتمسك بك حتى النهاية ..

ولم أعلم أن فصل النهاية سيكتب بيديك ..

****

شرحت لنجلاء ما حدث بإختصار، فتوجهت لمكتب المدير العام وانتظرتها برفقة عبق أوجاع معطرة بأمال مدفونة فى ريعان شبابها حتى عادت قائلة

_ المدير وصانى أفهمك الشغل الجديد بنفسى. شوفى بقى إحنا فى القسم ده تعاملك هيكون مع الأطباء خريجين كليه صيدلة.

جذبتنى لباب مكتب مقابل وقالت

_ ده مكتب الدكتور محمود هو لسه ما جاش بس راجل ذوق وشخصية محترمة قوى.

قامت بفتح الباب ودخلت إلى داخل المكتب، كان مختلف عن المكاتب التي في الأسفل، من حيث المساحة وأعداد الأرف والمحتويات. جذبتني نجلاء قائلة

_ وهنا مكان عينات الأدوية والألات وهنا...

_ نجلاء ممكن يوم تانى نكمل، معلش مش هقدر أستوعب أى شرح دلوقت.

_ مفيش مشاكل، نكمل بعدين. طيب كده خلاص هسيبك ولو احتجتى أى حاجة كلمينى.

عدت لمكتبي الجديد. لم أشعر بأى أنتماء إليه، فانتمائي خسرته مع روحى تحت أقدام "أدهم". لم استطع أن أجلس على المقعد المخصص لي فجلست أمامه أقلب فى صفحات حياتى البالية حتى دخل شاب تعدى منتصف العشرينات أنيق تحيطه هالة من الإحترام والإلتزام. وقف ينظر نحوي للحظة مصدومًا ثم القى التحية بخفوت ودخل المكتب.

شككت فى الأمر فدكتور محمود من أحاديث نجلاء السابقة عن عقله ورزانته وسعة أفقه والحوارات التي دارت بينهما جعلتني أخمن أنه رجل خمسيني العمر، إذا من هذا؟ وقفت من مكاني بنفاذ صبر وطرقت الباب الذي دخل منه ثم دخلت قائلة

_ حضرتك عايز إيه من هنا؟

ابتسم بهدوء وأستند بمرفقه على المكتب وقال

_ حضرتك اللي بتعملى إيه هنا؟

قبل أن أجيب دخلت نجلاء مسرعة

_ صباح الخير على الدوك بتاعنا.

_ صباح الخير يا نجلاء. فينك؟

_ خلاص راحت عليا. من هنا ورايح معاك "آيات" بنوته جميلة وهتمسك بدالى.

_ ماشى يا نجلاء وابقى خلينا نشوفك. نورتينا يا "آيات". أومأت نجلاء برأسها وأنصرفت. وبقيت أنتظر تعليماته بينما ظل يحدق بى بصمت. أصابنى الضجر فتململت مكانى لينتبه. فقال

_ شوفى يا "آيات" مفيش شغل ليكِ النهاردة. أكتشفى المكان بطريقتك وأي حاجة تقف قدامك بلغينى.

وافقته بهزة من رأسى وابتعدت أجمع باقى شتاتى.

****

قد حدث..

أن هذا الأمع بأعيننا ببريق يخطف الأنفاس.. رحل..

وسكن محله جار مهزوم ومنهزم قادوه من بلاد المعارك.. كأسير حرب كسر أضلعه..

فر شبح "يوناس" بذاكرتى كنبض هارب من قوافله لصحرائى. فجيعة خسارته قد أكون تجاهلتها في البداية أثناء سعيي وراء أدهم وتحقيق حلمي الوحيد، لكن الآن مع سموم رياح "أدهم" أستنزفت أخر أنفاسي هباءًا وتيقنت أنها النهاية.

جال بخاطرى "يوناس" عندما حذرنى " لو ابتعدت يومًا راحلة خلف حب بشرى ففراقنا لن يكون به عودة". كان هذا شرط فك أسر قبيلته له من محبسه، وشرطهم ايضًا للعودة للمحبس ايضًا. وقتها أستنكرت تفكير قبيلته وأحكامها، وكنت واثقة بأن يوناس لن يبرح وجيب قلبى مهما حدث، فلم أهتم بحديثه.

عدت للواقع وكتمت آه موجعة بكبرياء عاشقة شاكية

ولع الفراق. يجب أن يعود "يوناس" لعالمى ونتحدى أحكام قبيلته، فقد تعلمت الدرس وسأكتفى به لباقى حياتى. أنتظرت حتى خيم الليل بعبائته السوداء وركض الجميع يتلحف بها. رتلت التعويذات التى أحفظها عن ظهر قلب لأراه، وتمتمت بما يحضره لأحلامى قسرًا. رتلت ورتلت حتى غفت عيني.

"طريق جبلى ملتوى ضيق لم تنر فيه شمس من قبل ولم يسطع لليله قمر، كنت أسير بنفس الطريق الذى رحل منه أخر مرة. أنتهى المطاف بباب فولاذى مصمت عملاق يأتى من خلفه صوت يئن.

أسرعت الخطى لشباك صغير بأوسطه، فظهرت حوائط كهف بحواف مدببة. فى أقصى المكان شاهدت رجل يفترش الأرض منكس الرأس، أطرافه الأربع مكبلة بأصفاد سلاسل حديدية فى أقصى الشرق والغرب.

ناديته بهسيس همس فرفع رأسه ببطء، وبدأت

ملامحه المعذبة تنكشف رويدًا رويدًا حتى ألتقت عينينا فنظر لي بخواء. دق قلبى بعنف وأنا أكتشف الرجل المعذب أمامى ما هو إلا "يوناس".

بحثت بهستيريا بالباب والجوانب الصخرية الصماء المجاورة لعلى أجد طريقة للعبور إليه، هرولت فى الطرقات الضيقة المجاورة بغير هدي حتى غمرنى اليأس. عدت مقهورة إلى المنفذ الوحيد بيننا، أناجيه ليعود. ذكرته بسنوات طويلة تقاسمناها سويًا، فلفحنى لهيب عينيه الثائرة.

أعتذرت بندم عن تشبثى الأحمق بحلمى الأرعن الذى فرقنا، فتحول لهيب عينيه لقطران أسود. بدأت جفنيه فى الإتساع للأسفل حتى أقتربت من شفتيه، وخيوط من الدماء بدأت تتسرب من حدقتيه.

أصبح يزمجر بغضب ويتحرك بعنف ويصدر أصوات عالية هزت أركان المكان ليفك قيوده وأخذ دخان يصعد من تحت الأرض أحاطه بدوامته، حتى تعالى

عقير صرخاته فزلزل الكهف بأثره.

تساقطت الصخور من كل مكان فحجبت المنفذ الوحيد لرؤيته. ابتعدت للخلف بجزع صارخة بأسمه، فتحركت الجدران وأطبق المكان بفوران غضبه حولى وأذرع غير مرئية تكالبت ملتفة على جسدي أخذت تنهشه، وصوت من بعيد بدأ يردد...

"سبق السيف العزل"

****

أيقظنى والدى فجلست أصرخ وأصارع القيود من حولى بهستريا وعيون يوناس الدامية لا تفارقنى عينى. جلس والدى يقرأ آيات القرأن الحكيم حتى هدأت. ولكن هذه المرة بدأ الحلم فى التكرار دون النهاية الحتمية التى أستطيع إستدعاء والدى بها، وبقيت أتلقى إنتقام يوناس وكوابيسه ولم أستطع الإستيقاظ إلا و"الجاثوم" يعود ويهاجمنى حتى تكاد روحى تخرج من بين الضلوع.

****

الضياع الثامن

"موازين الحب"

والله لو حلف العشاقُ : أنهمُ

موتى من الحبِّ أو قتلى ، لما حنثوا

ترى المُحبِين صرعى في ديارهمُ

كفتية الكهف: لا يدرون كم لبِثوا

"الحلاج"

طاف بخيالى جميل الأحلام، وكم من جميل أتبعه ويلات، أنقلبت موازين الحب بزمانى، توشحت بسواد الحياة فأصبح الهلاك نصيبى منها. عشت نهارى بتيه مرعوبة من ظلال أشباح تمر أمامى ثم تختفى فى الاشئ قبل أن تظهر مسرعة وتصدمنى. حتى المرأة أصبحت تعكس أشكال أجسام شفافه لا أعرف ماهيتها.

أحرقت كوابيسى المتبقى من أعصابى المنهارة بشكل دائم بتكرار مشهد نهاية "يوناس" كل ليلة وصراعى فيه لكي أحرره. زاد على قلبى بلواه فتنشقت رائحة عطر "أدهم" فى كل ركن بالشركة. حكم على عقلى بالهذيان وكأنه يحالفهم ليتمكن من جنونى. أصبحت مدعوة بدعوة مفتوحة لذكرياتهما.

كحل الدمع عينى ونحت الحزن والخوف ملامحى فبت لوحة معبرة للشفقة. فقدت البسمة كما يفقد الورد أوراقه شتاءًا، والناس أصبحت بلا وجوه، والطعام يعترض طريقه غصة تمنعه. كل شئ أضحى بلا معنى ولم يتبقى إلا أنقاض روحٍ تختم على أهازيج الوجع بين السطور.

لاحظ الدكتور "محمود" انطوائى فأراد بثى بعض
القوة واحياء شعاع الأمل بقلبى لعله يساعدنى على
اجتياز محنتى ولكن كان يطرق باب مغلق بإحكام.

لجأ لنجلاء في حديث سري بينهم ليفهم سر معاناتى الصامتة، فحضرت بعد جلستهم وعاتبتنى على انزوائى والهالات السوداء التى تحيط جفونى وشرودى الدائم وإهمال عملى.

لم يجيبها إلا الصمت الياس فأحتضنت كفى وأجبرتنى على مرافقتها للدخول عند الدكتور محمود الذي يسأل عني ويقلقه حالي. دخلت معها بصمت ولم يسترعي انتباهي حتي النظر إليه، فمن هو حتي يهمه أمرى؟

تبادل الدكتور محمود ونجلاء أطراف الترحيب من جديد ثم ضحكت نجلاء قائلة

_ أخبار "آيات" ايه معاك يا دوك؟

وها هى تكرر المواقف مع أختلاف الأشخاص كلاً
يبحث وراء ذلات وعسرات غيره، انفرجت زاوية فمي بشبه إنحناء ساخر منتظرة تأنيبه، ولكنه ابتسم
قائلاً

_ إنسانة محترمة ما تتخيرش عنك يا نجلاء.

رفعت وجهي له لأول مرة منذ دخولي مصعوقة برده. تقابلت عيوننا.. نظرت له بعدم فهم. ولسان حالي يردد.. ألم يشكينى ويتهمنى بالتقصير؟ كنت فى الماضي أعمل بمنتهى الجهد مع "أدهم" ولم أنل منه إلا النكران، وهذا الغريب الذى بالكاد أعرف أسمه يمدحني.

ملأت غلالة من الدموع مقلتى وتركتهم حائرة وبداخلى أود الهروب عن الجميع بمنأي، ولكن واقعى لم أجد فيه تلك الرفاهية، إن أبتعدت أحاطونى فرضخت لعزلتى بمكتبه كلما أتاحت الفرصة.

****

بعد إنقضاء حوالي شهرين فى مكتبي الجديد حضرت ميار وإنعزالى عن الجميع ايضًا، صافحتنى بحرارة تعجبت لها. سألتنى عن أسباب عزلتى، وذمت "أدهم" وخسراته مجهودى الذى يشهد به الجميع إلاه، وبعد انتهاء عرض المراوغة قالت

_ شفتى "أدهم" يا ست أيات، كل يوم يعزم نجلاء ويفضل يهزر معاها وكأنه ما صدق يخلص منك.

نفذ سم كلماتها لسبات روحى فارتجت أركانى، وهدم معبد قلبى بنبض مازال يصارع سكرات اللهفة. طعنت بقايا روح مازالت ترتجيه بنصل مسموم ووقفت تشاهد نزيف أسيرت حرب أسكرها الضياع حتي الهذيان.

وقفت بجمود، ودخلت مكتب الدكتور محمود بوجع ينخر قلبى، أغلقت الباب وسالت دمعة مذبوحة مسحتها بأنهاك من رسائله التى يعلم أنها ستصلنى بحذافيرها.

فمن عشقته حتى الثمالة، وارتويت بهواه حتى الضياع، يتلذذ بعذابى، وها أنا أحتضر.

إبتعدت عن الباب لحظة انفتاحه بقوة ودخلت ميار تجول بنظرها كحية رقطاء بأنحاء المكتب

_ الدكتور محمود مش هنا يعني، أمال قفلتى الباب عليكي ليه؟

_ ومن امتى بقفل باب المكتب وفيه راجل غريب معايا عشان أقفله دلوقت؟

_ أمال بتعملى ايه؟

اقتربت منها كصقر ينوى الأنقضاض على فريسته وقد أشعلت نوع جديد من النيران بقلبي، فهتفت بها قائلة

_ انتي مالك؟ ما تشوفى شغلك بدل ما تصطادى فى أخطاء الناس، يلا يا أستاذة من هنا ووشك مش عايزة ألمحه تاني، يلا بره.

هوى قلبها ذعرًا من نظرة عيني الغاضبة، وتراجعت بذهول، وأتسعت حدقتيها عندما رأت أستعارة خلجاتى بحمم قابعة للأنطلاق، أعلم إنها المرة الأولى التى ترى فوران حمم غضبى وتأثيرهم على نظرت عيني فألجمتها الصدمة.

أنقذها من براثني دخول الدكتور محمود فولت هاربة تتعسر بخطاها وهي تنظر له بإرتباك ثم تعاود النظر لي من جديد.

زفرت بغضب ووليته ظهري وأردت الخروج من المكان فأستوقفنى بهدوئه المعتاد. وقفت أنظر له بنفس الغضب وعيني تحذره من التقدم نحو محرابي. ابتسم ببطء وقام بوضع حاجياته على المكتب واقترب بنفس الهدوء متجاهلاً تحذيراتي الصامة مستفسرًا عن ما حدث بإهتمام لمس أعماق قلبي.

على الفور ألتمعت دمعة تنوح بمقلتى مع ملامسة حنو نبرته مسامعى، لكنه مازال يعد رجل مهما حاول تغيير صفاته كباقى الرجال، من المؤكد أنه ذئب مثلهم ينهش فى النساء بلا رحمة. مهما حاولت الأهتمام أو أظهر الرحمة سوف تظل جينات الخيانة

تسرى بدمه.

رفعت كفى بضعف أمامه لأستوقف اقترابه وسيل أسئلته، وصورته تحتجب خلف غلالة دموعي، تركته بإنهزام ولهيب بداخلي يشتعل بدون رحمة، وكان وقوده كره يكفى كل من يحمل صفة الذكورة على وجه البسيطة.

قد يكون هذا المدعو محمود الذى يدعي التفهم لحزنى ويحنوا علي فى كلماته، قد كسر قلب عشقه ذات يوم ايضًا، وها هو يقف الآن بكل وداعه باحث عن صيد جديد.

****

جرت العادة أنه عندما يهزمنى فيضان الوجع أنزوى
بمكتب الدكتور محمود لأصب أمواج الضياع المنهمرة بخذلان. أمست التعاسة نهج حياة وصديقة عزلة فتفرغت لآفتها.
كما اعتزلت الناس اعتزلونى فتقوقعت داخل صدفة حزنى ولم يقتحمها إلا الكائن الغريب المدعو الدكتور محمود كل صباح بإبتسامة تسطع كسطوع الشمس فى صباح يوم ربيعى يتسائل عن أحوالى.
على الرغم من أجاباتى الباردة لم يكف عبثه الذي بت أحذر منه. حتى هاتفه أصبح يديره بعد حضوره على القرأن الكريم ويضعه بقربى ويترك لي مكتبه ويرحل، كلما وجدنى بمكتبه أسكب دموعى. شعرت بأنه يشير بتصرفه هذا على بالحل وخاصة بعد هجرى للقرأن والحياة بأكملها وانتكاستى.
حيرني كثيراً تصرفه، لا أعلم سبب تمسكه بالتعامل معى؟ رأيت كثيرًا كلام صامت على منبة شفاهه فتجاهلته بإصرار. لعله يريد أن يشد من أذرى أو يلومنى على تقصيرى بعملى وإثقاله به ولكنه من جهة أخرى لم يكلفنى بشئ بل أصبح يقوم بعمله وعملى معًا مما زاد سخط زملائى وبدأت تتعالى همساتهم المنتقدة فلم ابالي.
فقد أشتعل وجيب قلبى ببقايا حطب، ولم يتبقى إلا رماد سنوات ضاعت هباءًا لأنثره على أيامى القادمة.

****

هناك جراح تسكن حياتنا بشكل دائم.. حتى تصل لمرحلة الأدمان.. يصعب علينا العيش بدونها.. ولم نعد نطلب لها ترياق..

كاد عقلى يضيع نتيجة جريرة يدى، وحتى الدكتور محمود لاحظ صرختى المفزوعة المباغته والتي حدثت أمامه عدة مرات فجأة من أي شئ وكل شئ حتى لو وهمى.

بدأ يركز هاتفه على سورة البقرة وأل عمران، ويتركه أمامى ويرحل كالعادة بصمت. فى البداية كنت أختنق من سماعها لكن مع الأيام بدأت أطمئن. رويدًا رويدًا شعرت بها تنتشلنى من عالمى المقيت لتسكننى ركب السكينة، حتى أنى كنت أغفو لدقائق عليها مع حاجتى الملحة للنوم الهادئ بعد ما حرمت منه بسبب صراعاتى.

بدأت أقلد الدكتور محمود فى غيابه عندما تزيد خيالاتى وأخاف من وجودي وحيدة بالمكتب بعد ما اعتزلني الجميع. التجأ إلى سورة البقرة أو الرقية الشرعية والاستماع إليها على هاتفى. تشبث والدى بقراءة الرقية الشرعية على رأسى كل ليلة حتى لو كنت نائمة فبدأت أهدأ رويدًا رويد وتتراجع عنى الخيالات والأشباح التى تطاردنى فى يقظتى ونومى.

****

الفريسة والصياد

منذ متى والفريسة لها حق الهروب من الصياد؟ مهما حاولت الفرار واللوذ بحياتها يبقي الصياد على الدوام من له الحق فى تحديد الزمان، والمكان، والفريسة أيضًا.

ومنذ قبيل الزمان اشترط السلف السابقين أنه يجب أن يغرم الصياد بفريسته، وتنال رضا سموه، وترضى غروره حتى يعقد العزم على الظفر بها.

وربما.. يسمح لها ببعض المراوغة والأبتعاد الممتع لكن فى النهاية يجب أن تعترف أنها فريسة وستقع فى شباكة وقتما أراد.

عاد القدر يعاندنى ويطرحنى أرضًا بعد مضى بضعة أيام أمسكت فيهم زمام البعد وأستعدت سكينة روحى حتي شحذ أنتباهى ذات يوم تهليل الزملاء بالخارج لحضور "أدهم".

قضى اليوم بصحبتهم وكأنه حضر خصيصًا لرفقتهم حتى شارف فى ختام اليوم على أبواب صداقة مع الدكتور محمود. على حين غرة ذلف للمكتب، وخلفه الدكتور محمود وتصنع المفأجاة لرؤيتى. أقر بمعرفتنا السابقة وعينيه تلمع بتحدى شرس.

أشار له الدكتور محمود بالتقدم فدخلوا المكتب، وهويت مكانى، والريح تعصف بعقلى فتضعف مقاومتى. كنت أستمع لصوته بالخارج فاغتالنى الحنين لنغمه الذى عزف على قلبى لسنوات. هممت للقائه ولكن نهرت نبضى الضعيف. إن كان أنهكنى بعد المبارز القاسى بعض الوقت فالأن يقف بدهاء ليعلن عن بوادر حرب تلوح بالأفق.

بعد أنتهاء العمل، سرت بين أزقة الشوارع شاردة فى عودته، فقد أعتدت حرمانى من حكمه الجائر.

_ سرحانة فيا.

انتفضت وإستدرت بصدمة فوجدت "أدهم" خلفى.

أبتعدت بجزع فنادانى. نهرنى بغضب لأستوقف خطواتى، ولكن ثورة كلماته لم تزدنى الا هروبًا. يكفينى ما عانيت بعد سنوات عشق ضاعت وأضاعتنى ولن أسمح بالعودة.

****

لماذا كلما رفرفنا بأحلامنا بعيدا..

عدنا محملين بغبار الذكريات..

مع الأيام أستنزف "أدهم" بقايا الروح التى أرجوها بالصمود أمام خططه المختلفة. أصبح والدكتور محمود شبه متلازمين، والمكتب مكانهم الدائم ليعلن أنه مازال يتحكم فى خيوط الجولة. تغافلت عن بأسه وتصنعت القوة لأنقاذ بقايا قشورى المتصدعة التى بدأت بترميمها ولكن للقدر أحكام قد تعيد تشكيل حياتنا.

اليوم سمعت حوارهم عندما تخلل أسمى لمسامعى مع أرتفاع نبرته يتغلغلها الخبث:

_ "آيات" مريحاك، ولا تحب أكلمهالك؟

_ "آيات" دى مفيش زيها، يا بختى بيها.

توجست خيفة من كلاهما. "أدهم" أعلم أن مصادقته للدكتور محمود لم تكن إلا ستار لأعادتى لحصونه لكن هذا الغريب ماذا يريد؟ كيف بعد كل أهمالى لعملى، وتجهمى معه، يمدحنى بثقة ويظل يساندنى.

ربما شعر بعلو صوت "أدهم" فأراد رد مكيدته ولكن أشعر بمحاولاته لمساعدتى حتى عن بعد. تفاجأت بقلبى يبتسم وشعرت بطاقة غريبة منتشية. برغبة بترميم ركام محطم أشعلت فتيل ثورة بعقلى وبدأت بتعديل مساراتها مع دخول أول عميل.

أخترقت خلوتهم بوجه مشرق متعمدة إحراج "أدهم" وقلت

_ عميل يا دكتور محمود.

نظر نحوى ببلاهة، فكررت كلمتى برقة بينما أنظر إليه بإمتنان. أتسعت حدقتيه بعدم أستيعاب واستأذن أدهم وخرج. دخلت مع العميل وجلست مقابله وبيدى دفتر لأدون الملاحظات.

أمسك الدكتور محمود بورقة خط بها ووضعها أمامي. أمسكتها، وقرأت فحواها (لو عايزة تخرجى أتفضلى). فأبتسمت وزيلت على ظهرها كلمة (لأ). وضعتها أمامه دون أن أقطع حديثهما. فقرأها بعد برهة وابتسم. بعد أنصراف العميل وقف قائلاً بحماس

_ ممكن أعرف سر التغير المفاجئ ده؟

_ كل اللي ممكن اقوله لحضرتك هو شكرًا.

_ لا شكر على واجب. كل واحد فينا بيمر عليه فترات صعبة المهم إنها تعدى وما نضيعش الباقى من عمرنا.

كلماته كانت شهادة على صحة قرارى. فتابعت

_ إن شاء الله هحاول أفهم الشغل بأسرع وقت.

_ ما تضغطيش على نفسك يا أيات ، براحتك خالص.

خجلت من كرم أخلاقه وتركته وخرجت، وبداخلي أمل بأن تعاد خارطة حياتي تشكيل حدودها البشرية.

****

مع شمس عهد جديد، جذبت نجلاء لمكتب الدكتور

محمود وطلبت منها بحماس أن تشرح لى كل شئ يخص العمل. ضحكت بتعجب من تغيرى للنقيض فى ليلة وضحاها وظلت تنطق أسماء الآلات فلم أفهم شئ.

قمت بتقطيع بعض الأوراق بالمسطرة لقطع صغيرة، وكتبت عليها أسماء الأجهزة والمركبات وخرجنا من المكتب قبل مجيئه. عندما حضر القى السلام فرددته محاولة أخفاء ضوء سعادتى ودخل المكتب.

بعد دقائق طلبنى وكان يقهقه وهو ممسك ببعض القصاصات فنظر نحوى بمشاغبة أخجلتنى فقلت بإرتباك

_ أسمائهم صعبة فكتبتهم بمساعدة نجلاء لغاية لما

احفظهم.

_ طيب دلوقت أنا خايف أحرك حاجة وتزعلى.

_ لأ عادى براحتك، بس لو ضاعت حاجة حضرتك هتكتب بدلها طبعًا. قلتها بثقة فابتسم وقال

_ لو تسمحي ممكن احفظهملك ونلغى موضوع الورق.

وافقته بتردد فجمعهم بينما أنظر بحزن لمجهودى الضائع الذى سيلقى حدفه ولكن وجدته يفتح أحد أدراج مكتبه ويضعهم بعناية داخل احدى أجنداته. فقلت مستنكرة

_ ممكن يبهدلوا المكان؟

_ متخافيش.

قالها مبتسمًا ثم توجه لأحد أدلة الأدوات المعدنية وفتحه. جاورته فذكر أسماء بعض الآلات وأستخدامهم. فقلت

_ هو حضرتك حفظتهم فى قد إيه؟

_ خمس سنين فى الكلية يا "آيات" مش عايزانى أحفظهم؟ أمسكت بمفتاح النجاة وقلت

_ طيب خمس سنين، مش خمس دقايق فلو ممكن نقلل العدد شوية.

أومأ بالإيجاب وأعاد تكرار أمنهم فقلت بخجل

_ ممكن نقلل تانى؟

_ طيب مرتبكة كده ليه؟

ابتسمت لأزيل بعض التوتر وقلت

_ مش عارفة أحفظ حاجة.

_ لأنك مش متعودة.

وضع 3 أدوات على مكتبه وجلس واشار لى فجلست أمامه. كنت مثل طفل يتعلم النطق مما جعل ضحكاته لا تتوقف وهو يعيد نطقها. فقلت بخجل

_ العيب مش فيا العيب فى الأسماء المكلكعة. فاومأ بتأكيد وظل يكررهم بدون ملل

****

بعد أنهائي بعض الإجراءات فى قسم المخازن

أحضرت ايصالات الدكتور محمود وطرقت بابه الذى كان مواربًا فلم يجيب.

أدخلت رأسى قليلاً وكان ممسك ببعض القصاصات شاردًا وأمامه تستكين الأجندة التى سبق وأخفاهم بها. ابتسمت بينما أشرع فى الدخول قائلة

_ أنا حفظتهم وحضرتك نسيتهم؟

إرتبك وأسرع بإعادتهم للمكتب وقال وهو يشتت نظراته

_ لا طبعًا.

بس كنت بتأكد هتحفظيهم صح ولا غلط.

_ حاولت أكتب زى ما نجلاء قالت، المهم

الإيصالات دى من المخزن شوف كده في حاجة ناقصة.

_ شكرًا.

_ عفوًا.

أنحنيت ممسكة بقصاصة ساقطة أرضًا وتصنعت الحزن، فوقف على الفور معتذرًا.

قلت ومازال الحزن مرسوم على وجهى

_ مسيرك هترميها دى مجرد ورقة مش هتفرق معاك.

نفى كلامى وكرر أعتذاره فابتسمت لطيبته على الرغم من قوة شخصيته وذكائه البارز وهونت عليه الأمر، وتركته خارجة بينما ذكري رجل أخر تحتل صفاء ذاكرتي ودقة قلب تخترق بقوة صفوف ضلوعي.

وروحي تعترف.. بأنه كتب الكثيرون عن الفراق.. لكن لم يكتبوا عن هذا الفراغ المبهم الذى يحتل روحنا، ويؤذى قلبنا، عندما يختلط الغياب بالحنين فتتقطع الأنفاس بدون رحمة..

بعد أن غادرتنى كوابيسي مع التزامى بالأذكار والقرأن لم يغب عنى حنينى للحب الأول "يوناس"

ولكن كنت واثقة بأن عهده ولى ولن يعود.

****

الضياع التاسع
"أذيال الماضي"

مرت الأيام متقلبة بين الحنين ومحاولة تجاهل الماضى وأذياله والتشبث بفرصة الحياة من جديد. شخصية الدكتور محمود القوية مع أفقه الواسع بحديثة بدأت تنحى ضعفى وتدفعنى لجلب ثقتى بنفسى مرة أخرى بعد ما أنعدموا فى رحلتى مع "أدهم". لاح لى أمل بالأفق فابتهجت بمولده، وفتحت ذراعى لأحتضن القادم وبنيت أحلامى على أنقاض أطماع فرصة بين صفوف مغامرات الحياة. كان للدكتور محمود الدور الكبير فيها. شد ساعدى، ومنعنى من الأستماع لنداء شرنقتى.

ساعدنى تفهمه لتقلب مزاجياتى لدفن الماضى، فالنسيان أمرًا جلل لم أقدر عليه بمفردى. شتت تركيزى بين خبايا التركيبات العلاجية وأسرارها وتأثيرها على البشر بالأيجاب والسلب. جذبنى حديثه والتعمق فى قدرة الله سبحانه فى خلق ما يشفى البشر من داخل البتلات، والزهور، والأعشاب، والسموم أيضاً.

تصدى لنكأ جرحى، وألزمنى بصومعة يخط فيها الأثر فأسير خلفه. أغرانى بحياتى الجديدة فبدأت بتقطيع شرنقتى بقوة اكتسبتها من عزمه وإصراره على التميز بين أقرانه. غمسنى بطيات العمل ليستوقف تغلغل السرطان الذى توغل جسدى، وأنهكه بأسم الحب فأفسح لنفسه طريق يتسع مع الأيام لينير عتمة ملأت أعماقى. بدأت أتنافس معه فى قراءة القرأن وتفسيره مما دب بحياتى نشاط غير عادي بأوصالى.

****

ذهبت فى مرة أسجل بعض الأوراق فوجدت فتاة كنت أعرفها شكلها فقط من قبل وأنها رفيقة عمل لكن لم أتحدث معها من قبل، كانت تتحدث مع موظف التسجيل عندما دخلت وعندما رأتنى فأقتربت تدقق النظر بوجهى قائلة

_ ماركت إيه العدسات دى؟ أرتبكت، فتظاهر موظف التسجيل بفحص الأوراق، فقلت

_ مش عدسات.

_ قولى والله؟

_ والله.

أمسكت بذراعى وقالت

_ طيب تعالى.

_ والأوراق؟

جذبتهم وأتجهنا لمكتب بنفس الدور. دخلنا على هتافها

_ شوفى يا دكتورة العيون دي عدسات ولا لأ؟

وقفت الطبيبة التى تقبع خلف مكتبها بمرح وقالت

_ خضيتينى يا إسراء. جبتيها منين دى؟

جلست إسراء بجوار الشباك وفركت ذقنها بسبابتها وقالت بإهتمام

_ أتكعبلت فيها، المهم إيه رأيك فى عنيها؟

نظرت الأخرى لوجهى مبتسمة وقالت

_ اسمك ايه؟

_ "آيات".

_ انتي بتشتغلى مع الدكتور محمود. صح؟

أومأت بالموافقة فأعتدلت لإسراء

_ عارفة يا إسراء من فترة كنت عنده وشفت الحلوة دى بس كانت فى وادى تانى خالص.

ابتسمت بحزن وتذكر تلك الأيام الصعبة يمر بخاطري، بينما هتفت إسراء

_ يا دكتورة نرمين ركزى فى عنيها.

_ والله مركزة، بس سبحان الله شكل العيون والرموش ساحر.

_ ممكن لانسس بس ماركة غالية، صح يا "آيات" إعترفى ومش هفتن عليكِ.

ضحكت وشعرت بالألفة بينهما فقلت

_ والله طبيعي.

_ بس الرموش صناعى أكيد؟

_ برضوا طبيعى. الحمد لله كل حاجة فيا طبيعى.

_ كل ده طبيعى ومجبتهوش على ملا وشه.

_ اجيب مين؟

أجابت الدكتورة نرمين

_ قصدها الدكتور محمود أكيد. هو فيه غيره؟

بهت لصراحتهم، فأكملت الدكتورة نرمين ببساطة

_ ده واد عليه تقل، وشخصية حاجة كده ربنا يوعدنا.

_ وإيه يعني ما حضرتك دكتورة زيه بالضبط.

قولتها بحنق فأشاحت بيدها وهى تعاود الجلوس خلف مكتبها قائلة

_ زى مين؟ انتي مش عارفة بتتكلمى عن مين ولا إيه؟

صاحت إسراء قائلة

_ ابن الحلال عند ذكره يبان.

أسرعت الدكتورة نرمين ووقفت بجوار إسراء فانضممت إليهم بتردد. شاهدنا الدكتور محمود يترجل من سيارته وكانت المرة الأولى التى أرى فيها سيارته. فقالت إسراء

_ هو من عيلة مين يا دكتورة؟

_ دا باباه الدكتور حاتم رضوان. سمعتى يا "آيات"

عن الدكتور حاتم رضوان؟ ومين هى عيلة الدكتور حاتم رضوان؟

وأشارت لسيارته قائلة

_ تعرفى العربية دى ماركة إيه ولا بكام؟ رفعت كتفى بلامبالاة وقلت

_ عربية حلوة والسلام.

_ أسكتى يا "آيات" بالله عليكِ.. دا اللي هيتجوزها تبقى طاقة القدر اتفتحتلها.

جلست أستمع لإعجابهم به بغير اقتناع أن رجل يستحق أن تقلل الدكتورة من مكانتها العلمية لأجله. قطع حديثنا إنتفاضة الدكتورة نرمين عند دخوله قائلاً

_ السلام عليكم. فأجابت مرحبة

_ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أهلاً أهلاً المكتب نور يا دكتور محمود أتفضل.

_ منور بأصحابه يا دكتورة، أعذرونى لو قطعت كلامكم لكن أنتم طبعاً زى أخواتى.

أجابت الدكتورة مؤكدة بأحباط، فتابع

_ تمام. بما إننا متفقين على المبدأ ما أحبش أشوف إخواتى واقفين بالشكل اللى كان من شوية. آسف طبعًا لتدخلى بس ده حرص عليكم مش أكتر.

ابتسمت الدكتورة نرمين بإضطراب

_ طبعًا يا دكتور.

_ الحمد لله إننا متفقين. "آيات" لو سمحتى لما تخلصى يا ريت تيجى عشان فى شوية حاجات محتاجك فيها.

أجبته بالموافقة بينما أستفيق من هذا الموقف المحرج وتبعته لمكتبه. أثناء ترتيب الأدوات باغتنى قائلاً بجدية

_ كنتوا بتبصوا على إيه من الشباك؟

حدقت بوجهه ببلاهة، ثم قلت بتلعثم

_ عادى، كان فى واحد معدى.

وضع أخر شئ بيده على الرف المخصص، وتناول محرمة ورقية ومسح كفه بينما حدقتيه تتلاعب بمكر لم ألحظه من قبل، ثم اقترب قائلاً

_ اممممم واحد معدى؟ طيب بقولك إيه يا أيات؟ لو عايزة تتفرجى اتفرجى هنا، بلاش الشباك أصله ساعات بيجيب برد.

خرج وتركنى انظر لأثره بصدمة من إدراكه للسبب الفعلى لوقوفنا، وعاهدت نفسى بألا أقترب من هذا الشباك مرة اخرى مهما حدث.

مع الأيام زادت روابط الصداقة بينى وبين إسراء والدكتورة نرمين ومن خلالهم تعرفت على الكثير من الموظفات بالشركة، فزادت جلسات الأطراء على الدكتور محمود الذى لا يعبأ بهن.

****

جرت عقارب الساعة دون حساب وقاربت السنة المالية على الأنتهاء. جاء موعد الميزانية السنوية للشركة وفيها يقوم كل قسم بتقديم ملخص عن الفترة المحاسبية المنصرفة ويستمر العمل فى هذه الفترة لمدة أسبوع نظام شفتين يوميًا ويتوسطهم ساعة غداء. فى اليوم الأول للجرد دخل الدكتور محمود مبتسم بنشاط وكنت غارقة بين الأوراق والدفاتر وقال

_ يا صباح الشغل الجامد.

_ صباح النور يا دكتور؟

_ ابتديتى المعركة؟

أشرت الى الأشياء القابعة فوق مكتبى باستياء، فحملهم وقال

_ ورايا.

ترجلت خلفه، فجلس خلف مكتبه وقال

_ اقعدى واقفة ليه؟

_ مش فاهمة.

_ هساعدك.

_ لا لا. شكراً والله. أكيد حضرتك مش فاضى.

أشار للكرسى بحزم فجلست بخجل. أتى صوته هادئًا

_ ظبطت نفسى فى المذاكرة وهساعدك يعنى هساعدك، يلا نبدأ. بدأ يملينى وأكتب فشعرت بأنى مراقبة فتوترت، ووقفت، وقلت بارتباك

_ معلش ممكن تسمحلي أكمل برة.

_ ليه؟ إيه إللي حصل؟

_ مش بعرف أكتب وحد بيبص عليا، خطى بيطلع وحش.

قلتها بتلعثم فتعالت ضحكاته ثم أمسك بالدفتر من أمامى وتبادلنا الأدوار. بالرغم من جلوسنا لساعات منفردين إلا أنى لم أشعر بالخوف منه مثل ما كان يحدث عند اجتماعى بـ "أدهم" على الرغم من ترك الباب مفتوح فى كلا الحالتين.

نظرت لعينيه فبادلنى النظرة، فتمعنت بداخلهما للحظة حتى تلمست طيب بواطنه فاستراح قلبى لقربه.

إذاً ليس كل معشر الرجال يصطادوا فريستهم وينقضوا عليها متلذذين بدمائها المسكوبة تحت مسمى الحب.

ابتسمت ونبض ينبأنى بأن شتاء قلبى قد رحل. وأن الذئاب فى هيئة بشر أخترقهم نوع جديد يسمى الرجال، يحملون نكهة ذكوريتهم ولكنهم يعلمون أن للنساء نصيب معهم فى الحياة.

وعلى الجهة أخرى همس الدكتور محمود بداخله "عارفة يا آيات، لما بكون معاك بكون على راحتى ومش شايل هم أو مكسوف من أى تصرف قدامك".

أستمر الحال حتى انتهت الميزانية وأعترفت بتميز هذه الأيام بصحبته. إقتربت كثيراً منه، ودار بيننا حوارات عديدة فى مجالات مختلفة ففرحت بمنحى هذه المساحة من حرية الرأى مع شخصية مثقفة وواعية مثله. أثرنى بأحترامه لى أمام الناس بعد أن أعتقدت أنه ليس من حقى أن أحظى بمثل هذا الأحترام بسبب معاملة "أدهم" لى. لمست حمايته ووقوفه بصفى دائمًا فكان الجميع يخشون التجاوز معى حتى بت أفتخر بعملى معه الذى لم أعى قيمته من قبل.

****

صدمه أرتعش لها القلب مجازاً..

ونزيف كرامة مهانة عاد لسكب قطراته..

عدت من جلسة تلكؤ مع إسراء والدكتورة نرمين وتفاجأت بوجود "أدهم". نسيت وجوده وفرحت بما وهبتنى الحياة من هدوء. ابتسم بمكر فقد أنشغل بالعمل لبضعة أيام وها قد عاد ليستأنف الجولة. إنتزعنى من صدمتى قائلاً

_ مش ترحبى بمديرك؟

_ إزى حضرتك؟

_ نفسى فى حاجة حلوة.

تيبست أوصالى وتذكرت ذالك اليوم الذى أمسك بيدى عنوة وأغتصب لمسة ليست من حقه. طلب منى صنع مشروبه المفضل وعينيه لم تحد عن تفاصيلى ثم قال بصفاقة

_ فاكرة يا "آيات" أيامنا، لما كنتى بتعمل ليا النسكافيه بإيدك

؟ _ لأ مش فاكرة.

قلتها بحده، فمد قدمه للأمام وأراح ظهره على الكرسى وقال بعجرفة

_ بسيطة أفكرك.

ضغطت على فكى غيظًا وعلت نبرتى بتحدى

_ مش معنى إني دخلته لحضرتك عشان متجبش خصم للعامل الغلبان أكون عملته. وآه على فكرة.. مديرى هنا الدكتور محمود اللي قاعد قدامك ده إنما حضرتك أيامك خلاص ولت.

تركتهم وخرجت فلحقنى "أدهم" وعينيه تتقد غضبًا فتسلل الرعب لقلبى كشرار رعد سحقه منذ الوهلة الأولى. هددنى تهدين مبطن جلب كل معاصى الحب السابقة وزرعها بخذلان ايامى. سعيت لأوارى سوءة قلبى، فطفقت الأوجاع تنخر الضلوع محدثة ضجة خر لها البدن.

طلبنى الدكتورمحمود فدخلت بخنوع. أرسل حدقتيه على ملامحى بقلق. تشققت قشور قوتى التى أكتسبتها بفضله فدفنت وجهى بين كفى وانتحبت. وقف سائلاً عما حدث فلم يجبه إلا إنهيارى، فتنهد بصبر وتؤدة وقال

_ دموعك دى بسبب "أدهم"؟ حاسس إن فيه حاجة مش طبيعية بينكم؟

ضرب أعصار أسمه كابوس عشقه الأسود الذى لا أعلم كيفية الهروب منه. التزم الصمت برهة ثم خرج وأغلق الباب. سمح المجال لأترك لقلبى العنان ليجهض ما تبقى فى رحم مقلتى، وبقيت أنوح كالحمام. عاد ومازلت أسكب دموع الخوف من أغلال ماضي أستباحنى جلاده. فقال

_ اشربى العصير وإهدى عشان نعرف نتكلم.

تعالت شهقاتى أمامه، فقال بحنان

_ "آيات" أحنا فى شغل مش هينفع كده. طيب أحكيلى وصدقينى محدش هيعرف حاجة من اللى هتحكيه.

فاض الوجع بروحى، ووئدت أمالى الصغيرة، فسقطت دموع الذل كشلال ضاقت بحواجزه. تحركت بضياع فى أرجاء الغرفة، والكلمات جبانة محشورة بحنجرتى ترفض الخروج، مسحت عليها بثورة تحتضر وهتفت بهذيان كرهه. لم أعلم لما بحت بسر كراهيته لمحمود، ولكن أستبد الخوف منى، وقربنا فى الفترة الأخيرة جعلنى أشعر بمشاعر أخويه تجاهه أشعرتنى بالأمان فهو من بعث لقلبى الحياة، وأشعل بالذكرى النسيان. أقتربت منه قائلة برجاء

_ عشان خاطرى بلاش تجيبه هنا يا محمود.. أنا خايفة قوى.

_ ما تخافيش، بس فهمينى كل ده ليه عشان اتصرف؟

قلت بحقد وصورة "أدهم" تقف بشموخ أمام انهيارى

_ عايز يضيعنى، عايز .....

مادت الأرض من تحتى، فوضعت كفى على عينى لأزيل الضباب المفاجئ، وأبعدتها فرأيت الأشياء وقد أصبح ظلالها يتراقص أمامى، والمت بى ظلمة لا يلوح فى حلكتها ضياء، فسقطت فيها. كان هذا عقابى لأنى وفقط، سلمت قلبى بكل خنوع لمن لا يستحق.

ألتهم محمود الفاصل بيننا قبل أن يرتطم جسدى بالأرض، وأراحنى عليها بهدوء. ظل يربت على خدى لأستفيق وهو يرى قلبى متكشف برداء الندم وقد ضاعت خلجاته فى بحر العشق. عندما أنفرجت جفونى كان جالس بجوارى على ركبتيه. لمحت القلق بمحياه فأغمضت جفونى لأستجمع شتاتى.

_ "آيات" سمعانى؟

قالها فأنفرجت جفونى ثانية ببطئ فمرر كفه أمامى وقال

_ شايفانى يا "آيات". أومأت بالأيجاب. كسكيرة أثملها مرارة الحياة وأعتدلت أستند على مكتبه وقد عاد شلال الإنهزام فى الإنهمار. فقال برجاء هامس

_ عشان خاطرى كفاية.

نظرت لوجهه من خلف ستارة الدموع فلمحت بعينيه أجمل قصيدة منظمة قد تربك حواسى، ولكن رفضت تصديقها، فقلبى خرقة بالية لن تنفع أحد. أعتدلت عازمة الخروج فطلب أن يقوم بإيصالى. فأجبت بخفوت

_ هروح لوحدى.

_ وانتي كده؟

_ هركب تاكسى، مش عايزة حد يتكلم كلام ملوش لزمة.

تنهد، ومسح على وجهه مستغفرًا بعصبية وقال

_ خلاص هنزل وأفضل فى عربيتى، وانتي أنزلى

بعد شوية. اركبى تاكسى، وهمشى وراكى لغاية لما توصلى.

_ ملوش لزمة تعبك، لما أروح ابقي أطمنك لو تحب.

_ ممكن تسمعى الكلام وبلاش عند الله يخليكي.

_ حاضر.

ابتسم قليلاً بمشاغبة وقال

_ طبعاً ده ما يمنعش تكلمينى تطمنينى.

_ حاضر.

_ يا شيخة أخيرًا.

بالرغم من عشقى ل"أدهم" لم يشعرنى بأنتمائى إليه. كان هناك حاجز تجاهلته على غرار هذا العشق. ملك قلبى وعقلى وكل تكوينى ولكن لم أذق الأمان معه. كنت دائمًا مترقبة خائفة عكس تعاملى مع محمود مطمئنة للغايةً. لم يولي "أدهم" لسعادتى قدر. رأيت الحب الكاذب بعينيه، ولكن قلبى الأحمق صدقه فأضحيت كلعبة الماريونت يحركها كما شاءت أهواؤه.

دخل الدكتور محمود وابتسم بحنان، ووضع أذن الخروج أمامى، وقال

_ جاهزة؟ ابتسمت بوجع وقلت

_ جاهزة.

خرج، ولحقت به. ركبت، فتبعنى. نظرت لصورة سيارته المنعكسة بالمرأة الجانبية فكان كحارس وكل إليه الدفاع عنى، تمنيت لو كان أدهم مثله وكنت أحظى بهذا الأهتمام منه.

****

الضياع العاشر
"العهد"

عندما يعتصر الوقت الصمت يعطب القلب، وتنتصر الساعات على النبضات، فيتهاوى جسدنا بأنهاك، ونعترف أن للقدر أحكام لا مفر منها. بعد عودة الدكتور محمود منزله، أستقر بغرفته منعزلا عن أسرته. شارد يتذكر أحداث يومنا . حزين على، واضعا هاتفه أمامه ينتظر مكالمتى وكأن الوقت تحداه فمر بطئ كعادته فى الأنتظار، حتى صدح نغمة هاتفه فلبى قلبه

_ "آيات" أتاخرتى ليه؟

سرت لهفته فى أوصالى من لهفت رده فقلت مرتبكة

_ مفيش.. أتغديت وصليت، وأول ما دخلت أوضتى اتصلت عليك.

تنهد باستسلام يستجمع بقاياه ليخبئ شوقه الغاضب على خاصته بلهيب أشعل حطام السكون فأشهر راية العصيان.

_ عايزك تطمنى مش هسمح يقربلك تانى أنا اللى هوقفله وقتها.

تنهدت بحرقة وقلت فاقدة للأمل

_ هو صاحبك ومحبش إنك تخسر أصحابك علشانى.

_ أنا اللى بطلب منك كده، وهو مهما كان مش أغلى منك.

شئ ما فى نبرته أشعل فتيل الشك بعقلى، ونبهنى لبواطن مستترة. تلبسنى رداء الحيرة، ولم أصدق ما جال بخاطرى، وتذكرت أنهيارى أمامه فقلت بحزن

_ آسفة بالنسبة للى حصل، مش عارفة ازاى ضعفت كده.

_ أيات إنتي حبيتيه؟

أغمضت جفونى بألم، فتهجد صوته

_ طيب لسه بتحبيه؟

اندفعت أنفى تهمته، فعاد يؤكد بقاؤه بجانبى مهما حدث فتسائلت حائرة

_ بتعمل معايا كده ليه؟ أنا صعبانة عليك للدرجة دى؟

_ اوعى تقولى كده. ولو على السبب هتعرفيه مع الأيام. المهم أرتاحى وما تفكريش فى حاجة.

_ إن شاء الله..لا إله إلا الله.

_ محمَّداً رسول الله.

أغلقت الهاتف وتدثرت بين حنايا أغطيتى، أفكر باهتمامه وسعيدة بشهامته معى. ووعده بحمايتى من"أدهم".

****

أخترقنى صوت "أدهم" فى الخارج فانتفض قلبى رهبة وتوقفت أنفاسى على هتافه

_ ماتيجى يا دكتور نقعد فى مكتبك عشان البرد.

_ لأ خلينا مع الرجالة هنا، بعد شوية هدخل أذاكر عشان أمتحان الماجستير قرب، وكمان هكون مش فاضى الفترة الجاية أقعد مع حد خالص.

ربت "أدهم" على كتفه بحنق وقال

_ ربنا يوفقك.

بعد دقائق رحل "أدهم" بحجة العمل. فتنفست الصعداء. أنعطف الدكتور محمود لمكتبى بنظرة متفحصة قابلته نظرة هادئة ممتنة. فانفرجت ملامحه عن إيماءه بسيطة كان لبداية لشرود أتبعه أكتمال خطواته لمكتبه وترك الباب مفتوح. فتح شباك

مكتبه وبالرغم من برودة الجو التى تلفح صفحة وجدانه إلا أنها لم تطفئ السعير الذى يلتهم قلبه بتلذذ. هو رجل شرقى يحب فيغار، يحترق بنيران حبه ويشتعل بقرصى العسل العالق بهم دون هدى، ويجب عليه أن يتذوق المزيد من هذا الإشتعال بصمت.

****

ذات يوم طلبنى الدكتور محمود بمكتبه وتفاجات بإشارته لأحد المقاعد الذى قام بتغير موضعها من أمام مقعد العميل وجعله بزاوية بحيث يكون مواجه له وظهرى للعميل وقال بترقب

_ إيه رأيك فى مكانك الجديد؟

_ ليه كده؟

فقال بثبات حازم

_ عشان مش هتقعدى قدام العملاء تانى.

_ طيب العملاء ممكن يدايقوا.

فأقترب وقال بصوت بحدة

_ هما ليهم شغلهم وبس، واللي مش عاجبه مع السلامة. ولا إنتى اللى مش عاجبك؟

بالرغم من الأجواء المشحونة، وغضبه إلا أننى لم أستطع منع فرحتى بإهتمامه الذى يغمسنى به يوم بعد يوم. وأعترفت بأحقية سريان الغيرة فى قلوب الفتيات فقط من أجل عملى معه. فقلت مشاكسة

_ إللي تشوفه يمشى على رقبتى يا دكتور ولا تزعل نفسك.

ابتسم وقال وهو يمد أطراف أصابعه لعنقى دون أن يلمسها

_ أرى رؤوسًا قد أينعت وحان وقت قطافها، ولكن صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

خرج وتركنى أتخبط بين تصرفاته الحازمة المشاكسة ولكن الراحة التى أجدها بجواره تمنحنى الكثير من القوة فلم أفكر كثيراً.

****

فى إحدى المقابلات كان يوجد عميل يحكى ويتحاكى عن أساطيره وقدرات عبقريته. حاول الدكتور محمود بلباقة أن يقنعه أنه ليس لديه وقت، ولكنه لم يفلح فى إيصال المعلومة. ظللنا فى الأنتظار حتى ينتهى ويخبرنا بطلباته فأصابنى الملل وشردت فى اللا شئ أستند بخدى على قبضتى. أفقت على طرق قلم الدكتور محمود على ظهر كفى الاخر، فرفعت وجهى لأرى الضيق على ملامحه ونطق بأسم أحد الأدوات لأجلبها.

وقفت بغير تركيز وقمت بفتح الدولاب والنظر بأدواته ولم أجدها. فقمت بفتح آخر وقبل أن أكمل البحث، كتبت على الهواء اسم الآلة في محاولة لتذكر مكانها. وقوف الدكتور محمود بجوارى غاضبًا وقام بإبعادى بإشارة منه.

أخذ الآلة وأعطاها للعميل وعاد مكانه. فعدت ودونت على أحدى الأوراق (مالك)؟ قرأها وأعتصرها بين راحتيه وألقاها فى سلة المهملات، وبدأ بهز قدمه ولم يجيب. ما إن أنصرف العميل حتي وقف هاتفاً

_ إيه اللى عملتيه ده؟

_ عملت ايه؟

قلتها مذهولة فضم قبضته، وضرب سطح المكتب وقال

_ مش عايز أستهبال لما واقفة تتدلعى والعميل هياكلك بعنيه.

_ والله كنت ناسية شكل الآلة، ودى طريقتى لما احاول افتكر حاجة بكتبها على الهوا.

صاح بغضب عارم وهو يقترب

_ لما تنسى حاجة إسألى، لكن تعملى الحركة دى والعميل يتأمل فيكِ، وقبلها قاعدة سرحانة في حبيب القلب. ما تحترمى نفسك شوية محدش مالى عينك ولا إيه؟.

أغرورقت مقلتى وهتفت

_ تصدق الغلط مش عليك.. أنا اللي غلطانة إنى

فتحت قلبى وحكتلك. ظهر جليًا محاولته للتحكم فى نفسه وأشاح بوجهه، واصطكت أسنانه بقهر، وقال امرًا

_ على مكتبك.

نظرت له شرزًا وخرجت. جلست على مكتبى بحنق، وندمت على ثقتى به فها هو يعايرنى. بعد دقيقتين وجدته يحمل اللاب توب وأوراقه وخرج دون أن يعيرنى أدنى اهتمام. زاد حنقى عليه فقد أساء فهمى، وصاح بوجهى، وأتهمنى بعد أن أضحت له الأمر، ولكنه تخطى الخطوط الحمراء. ليذهب حيثما يشاء فلم أهتم؟

بعد دقائق خرج الدكتور محمود من بوابة الشركة غاضب مشتعل القلب، مضطرب الفكر، وضجيج المشاعر لم يرحمه. مزقه الشك بسياطه فعاد لمنزله باكرًا وأخبر والدته أنه ينشد الراحة ودخل غرفته لينفرد بنفسه. ألقى ما يحمله بأهمال، ونزع ملابسه بشدة حتى تطاير أحد أزرار قميصه ثم ألقاه بعنف على الأرض وحممه البركانيه تزداد بداخله، والأحداث تعاد بمخيلته ويود لو يستطيع وضع أصبعه فى عين العميل الذى كان يناظرنى.

ألقي بجسد على سريره وهو يغمس رأسه بين كفيه بقهر ورغبة ملحة بصفعي لتفكيرى بكابوسه الكبير "أدهم" الذى تصنع محبته وهو يخبئ الضربة القاضية لقلبه.

تمنى لو أستطاع قتل "أدهم" بل ود لو أوسعه ضربًا مبرحًا ليذيقه الآلام التى شطرت قلبى ثم يقتله ليستريح. تنهد وهو يمدد جسده على سريره ينشد الراحة فقد تعب من الصبر. قلبه الأحمق هو السبب. لما مال عندما رآنى أدلف من باب الشركة لأول مرة ووقفت لأسئله عن مكتب المدير العام بينما أنزِع نظارتى الشمسية ليصيبه سهم فتاك لم يكن أنه قد أصاب صميم قلبه.

لِما تتبع مرحى الصباحى مع الزميلات قبل العمل من على بعد؟ لِما سمح بسرقة لبه؟ وماذا جنى إلا السراب؟

ظل قابع طوال اليوم يحاكى خياله صورتى مفتون ببسمة، ونظرة شعاع العسل بمقلتى القابعين خلف رموشى كحراس مُشهرين أسيافهم لأغتيال كل من يقترب. ولسوء حظه أنه أقترب..

أنطلقت أفكاره تعصف به، وزادت حمم بركانه عندما شاركت صورتى "أدهم". فهو إلى الأن يرفض فكرة أن قلبى أحتل من قبل لغيره، استعمره ظالم وأسره بغير حق، فأذاقه الهوان ثم تركه كركام بقايا حرب.

فلما فعل هذا؟ ولما سمحت له بالأقتراب؟ أبتسم بسخرية فهو ايضًا ترك نفسه لرياح الحب بدون السؤال لما. أقترب أكثر مما يجب ولكن مهلاً منذ متى وهو ضعيف؟ أين عقله الذى يحكمه دائمًا؟ أعتدل وأمسك هاتفه وقام بالإتصال بالشركة وطلب أجازة بضعة أيام ليعيد حساباته، فلن يتركه رهن أشارة الحب، وأغلق هاتفه حتى لا يتراجع عن قراره.

****

في اليوم التالي قبل أن أدلف لمكتبي علمت بأجازة الدكتور محمود فظلت التساؤلات تلاحقنى. هل سبب الأجازة إنزعاجه منى؟ أم حدث له مكروه؟ شعرت بالمكان يتحول لصحراء جرداء دون أنيس فانتبهت لأهميته. راودنى شعور غير مألوف بالنهاية الحتمية لو علم "أدهم" بغيابه.

أسرعت لمهاتفته ووجدته مغلق. قد يكون له الحق فى الغضب من نظرات العميل، ولكن لو كان هناك خطأ منى فهو غير مقصود، وقد شرحت كيف تم الأمر، كما أن "أدهم" قد لطخ صورته بكل المسيئات التى لا تقبل بالغفران، فكيف يتهمنى بالتفكير فيه؟ ومهما حدث فلا يجب عليه أن يتركنى بين براثن "أدهم".

مع مرور الساعات كررت محاولتي وطلبت رقمه

عدة مرات إلى أن حل المساء ودائمًا مغلق. فكرت فى إرسال رسالة فكتبت (لو غيابك بسببى بعتذر تعالى ونتفاهم، ولو لسبب تانى طمنى عليك).

قمت بإرسالها ووضعت الهاتف على وسادتى فى انتظار رده حتى غفوت.

****

قضى محمود يومه داخل غرفته يتقلب على جمر الأفكار وصراع الأمنيات بدون أن يرسوا على شاطئ. وفى اليوم التالى استيقظ وظل مستكين مكانه ناظر لسقف غرفته والغضب يعود لينهش بقلبه. نهر نفسه فهو ليس أول من يحب من طرف واحد فلما يحبس نفسه هكذا فهو لم يخطأ، فليشغل نفسه بدراسته ومع الأيام سيصبح حب "آيات" ذكرى.

وقف وأعاد تشغيل هاتفه ليتصل بالدكتور المشرف على رسالته. سيغرق نفسه بين أبحاثه وبالتاكيد سينساها. وقبل طلب الرقم وصله رسالة.

قرر للحظة تجاهلها، ولكن إسم الراسلة دفعه دفعًا لفتحها. وقبل أن يعيد ترتيب أوراقه ليرحل عن طريقها، كان كيانه قد بعثر على أرضها.

ما وجده كانت مجرد كلمات ولكن أضاءت ظلام روحه وأشرقت شمس قلبه وأعادت شغف الحياة لعمره القادم.

****

أثناء طريقى للعمل صباحًا دعوت الله برجوع الدكتور محمود، وقلبى ينبض برهبة وخوف. قمت بتجهيز مكتبه وانتظرته ولكنه لم يحضر. فقد قلبى أهليته وبدأ الخوف يراودنى فقررت قطع حبل أفكارى. أحضرت أحد الملفات وأندمجت معها حتى التفت برعب على تطويق أفعى سامة لكتفى. وقفت مبتعدة متصنعة الثبات مستنكرة فعلته. مط "أدهم" شفتيه بإزدراء وقال

_ بجد يا "آيات" لعبتك بقت مملة؟

كل ذرة بداخلى كانت تستنفر وجوده وتخافه وعقلى

شلته الأصفاد فقيدت الحلول إلا من خيال مصدر حمايتى الوحيد. حذرته بأرتباك

_ لو ما خرجتش، هقول للدكتور محمود علي تصرفاتك دى.

_ دا انتي بقيتي جامدة، ومش واخد بالى.

قالها ببطئ مدروس، وقد ظهرت شياطين عينيه وهو يتفحصنى بتملك سافر قائلاً

_ انتي أجبن من إنك تحكى لحد. وعلى فكرة أقدر اخطفك من غير ما حد يشك فيا، بس عايزك تيجى بمزاجك هتبقى أحلى. وعشان خاطر جمالك صبرت، بس بصراحة إنتي تستاهلى وخاصة بعد حدوتة الحلم والفيلم الهندى ده. وأهو بديكى فرصة اخيرة عشان ترجعى البنت المطيعة.

دلا دلوه وغادر منتشيًا يمنى نفسه بتحقيق حلمه الذى لن يتنازل عنه. دق ناقوس الخطر على أعتاب المنتهى. انزويت بمكتب الدكتور محمود دامعة وأحتضنت نفسى بخوف من المجهول.

لماذا كلما تسلل الأمان لنبض قلبى، ولمس الهدوء روحى قابلهم القدر ببيادق الحرب المجحفة، وسقطت صريعة الكر والفر. شعرت بمزيد من العجز فى غياب الدكتور محمود فزاد قهرى. وضعت جبهتى على سطح مكتبه أنتحب واليأس يفتك بى بدوامة لا أرى لها نهاية.

****

"عهود"

جميعنا نعقد الصفقات والعهود ...

وجميعا نخونها إذا تعلق الأمر بالحب ...

طرقات بقلم على كفى جعلتنى أنتفضت، وسهم الخوف عاد ليقتلنى. كانت الصدمة عندما رأيته يقف أمامى والإبتسامة تزين ثغره ممسك بالقلم. حدقت به لوهلة ثم انطلقت نحوه غير مصدقة أن طوق نجاتى "محمود" قد عاد وعاتبته على أبتعاده. ابتعد خطوة للخلف متفاجأ من رد فعلى ثم رويدًا رويدًا عندما أدرك كلانا ما حدث بدأت تتسعت ابتسامته.

خجلت من رعونتى، وعدت أدراجى للخلف لأفسح طريقه، ومسحت دموعى ولأغير مجري ما حدث عاتبته على غيابه. عضيت طرف شفتى السفلي خجلة من حماقة عتابى وتوقيته. وعدت أكمل هامسة

_ قصدى يعنى عشان مش متعودة المكتب يبقي فاضى، واااااا كده يعنى. _ وإيه كده يعنى دى؟

شبكت أصابعى بتوتر وقلت بتلعثم وأنا أشيح بنظرات

_ يعنى تقدر تقول عايزة أراجع أسماء الآلات، فتكون موجود ولقيت اسم حلو للآلة الغريبة اللي زعلتك.

_ هتسميها إيه؟

_ إثبت ياللا.

_ إيه؟

_ إثبت يالا.

اتكأ بكفه على الحائط، والأخرى دسها فى مخبأ بنطاله وأنتصب أكثر بوقفته قائلاً

_ وده من إيه إن شاء الله؟

_ ده هيبقى "السيم الحركى" بيننا.

_ "السيم الحركى؟" لا أحنا نراجع علي الآلات أفضل بدل ما نروح ورا الشمس بالسيم الحركى بتاعك.

ضحكنا وأستمر بنا الحديث بسلاسة بدون عتاب، نتنقل من موضوع لأخر بدون أن نشعر بالوقت ولا بمرور الدقائق ولا حتي بالمدة التي بقينا فيها واقفين سويًا، ووكأن لم يكن بيننا خصام من قبل، حتى توقفت أنظاره على شئ ما خلفى من الشباك، فاختفت ابتسامته وأوصد الشباك بعنف مستغفرًا بضيق.

تركنى وعاد لمكتبه فدفعنى الفضول لمعرفة سبب

تغيره المفاجئ فأعدت فتحه مرة أخرى فوجدت "أدهم" يقف عند شباك مكتبه ينظر إلينا. انتفض وأغلق الشباك بغضب

_ بتفتحيه ليه؟

رفع كفه بدون تفكير ليصفعني، فأخفيت وجهى بذراعى ووليته جانبى. خيم الصمت لحظات كدهر علينا حتى أعتدلت محملة بدموع الصدمة، فأنزل كفه مذهولًا بما حدث قائلاً

_ "آيات".. أنا أسف مش عارف كنت هعمل كده إزاى.

نطقها بنفس الذهول وهو ينظر لكفه فتمردت دموعى وابتعدت عنه وشئ بداخلي يزيد من وجهة نظرى السابقة وأنه أصبح ينظر إلى مثل كأني شئ حقير لا يستحق الاحترام.

ابتعدت لأخرج من محيطه فكرر أعتذاره بندم. أومأت

بصمت وتركته وعقلي يذكر اعتذاره تاركه وينكر فكرة وجود احترام لي بداخله تارة أخرى.

بعد ساعة أوصدت باب مكتبي بشدة، فهز صوته أرجاء المكان. وقفت خلفه ارتجف فخرج الدكتور محمود متسائل عما يحدث بإستغراب. سالت دموعى وضغطت على قلبي لأمنع خفقاته المروعة ففهم الأمر بدون شرح. اقترب هاتفًا بغضب

_ خايفة ليه؟

_ أصله جه وهددني قبل ما ترجع من أجازتك.

ضرب الحائط بقبضته وإِحْتِدمت أنفاسه ثم التفت قائلاً

_ دلوقت وجودنا وبابك مقفول ممكن يثير القيل والقال، أدخلى مكتبي ومتخفيش أنا هتصرف.

نظرت له برفض ولكن ما رأيته بعينه دفعني لترك الباب والسير لمكتبه بخنوع.

أغلقت بابه فخرج يرغى ويزبد. جلست شاردة متخوفة من أدهم وشباكه التى ينصبها بالخفاء ولا أعلم متى سيحين وقت سقوطي فى الهاوية. عندما عاد الدكتور محمود قال

_ لو عايزة ترجعى مكتبك اتفضلى.

شكرته بهدوء وقبل أن أخطو للخارج قال

_ على فكرة بعد الجواز مفيش شغل تانى.

_ وحضرتك عرفت من أين؟ ما يمكن ظروف زوجى محتاجة لشغلى ده. طرق بالقلم على سطح المكتب بقوة وقال

_ لا ما تقلقيش.

هو ناوى بس يتلم عليكى فى بيته ويمكن يخليكى ما تشوفيش الشارع تانى.

ابتسمت بحزن وقلت ساخرة

_ طيب ما تعرفنى عليه بالمرة يا دكتور ينوبك ثواب فيا بدل المرمطة اللي أنا فيها دي؟

ألقى بالقلم على الحائط خلفى بعصبية فتراجعت للخلف وأنا أرفع كفي أمامي ليهدأ ، وتابعت

_ خلاص يا دكتور بالراحة، أكيد هعرفه هيروح منى فين؟

خرجت من مكتبه وكل ما يشغل عقلي ما هى خطة "أدهم" القادمة؟

****

الضياع الحادي عشر
"انكشاف مشاعر"

أختفى "أدهم" لعدة أسابيع، تسللت الراحة فيهم لقلبى. عدت أنغمس بعملى ولروتينى اليومى بهدوء. وأصبح التعامل الحذر يغلف علاقتى بالدكتور محمود بدون سبب. أتت عميلة كانت والدتها معتادة على التعامل مع الدكتور محمود ولزيادة مرضها بعثت ابنتها. كانت فتاة جميلة أنيقة ويتضح أنها تناست باقى ملابسها بالمنزل. دخلت المكتب بحنق

_ هو ده مكتب محمود بتاع الأدوية؟

_ ده مكتب الدكتور محمود حاتم حسين لو اللي حضرتك تقصديه؟

_ طيب طيب.. قوليلة هالة الجمال. وقفت بهدوء وطرقت باب المكتب فسمح بالدخول

_ فى عميلة.....

قطعت باقي كلامي مع دخولها متأففة، وقالت

_ أوف ساعة.

جلست ووضعت ساق فوق الأخرى بينما قال الدكتور محمود بحدة

_ من الأدب يا آنسة تسأذنى وتنتظرى أسمحلك بالدخول.

أحاطته نظراتها الصريحة بالإعجاب الذي لم تحاول أن تخفيه وأعتذرت برقة بعد أن اطلقت تنهيدة خفيفة وقال

_ أوك.

هممت بالخروج لاحضار الدفتر والقلم ولكنه استوقفنى وحاجبيه قد ارتفعتا لأعلي

_ على فين؟

_ هجيب الـ.......

_ ماتجبيش حاجة يا أمى، أقعدى هو احنا لسه هنجيب.

كتمت ضحكتى وجلست، فرمقتنى العميلة بلامبالاه ومالت بجزعها على المكتب وقالت بدلال

_ أنت إللي بتبيع هنا؟

نظر لها بصدمة ثم شتت نظراته نحوي قائلاً

_ ممكن حضرتك ترجعى ورا شوية.

غلغلت أصابعها فى شعرها وهى تتهادى بمجلسها عائدة. فزمجر

_ طيب عشان نخلص فى اليوم اللى مش فايت ده. إيه أسم الأدوية اللي محتاجاها؟

_ هتعرف تجيبها؟

قالتها بغنج. فتنهد بنفاذ صبر وقال

_ إن شاء الله. بس إسمه إيه الدوا؟ طرقت بخفة على شفتيها وقالت

_ مش فاكرة. هي مامى عندها سكر، وضغط، وشوية حاجات كده، ونايمة فى السرير. أنتو بتدوها إيه؟

شعرت أن الدكتور محمود على وشك قتلها وهو يقول

_ شوفى يا آنسة، هنا شركة وبنستورد ادوية مش مستشفى. حضرتك تروحى كده زى الشاطرة تعرفى إسم الدوا وتشرفينا مرة تانية.

_ بجد عايز تشوفنى تانى؟

رفع وجهه للسماء وتمتم ببعض الكلمات سرًا وقال

_ ما هو حضرتك لازم تشرفينا، عشان نعرف أسم الأدوية ونقدر نخلص الأجراءات.

سحبت القلم من جوار أنامله بتمهل فأبعد كفيه ورفعهما لأعلي في حركة تلقائية سريعة. وقالت

_ وإيه هي الإجراءات دى؟ شرح الإجراءات بشكل سريع وختم كلامه

_ نورتينا يا فندم.

أشار للباب فتجاهلت إشارته وقالت:

_ أنت مشترك فى نادى إيه؟

أعتصر قبضته وأمسك بورقة من أمامه بعنف وكتب (خرجى الكتكوتة دي من هنا بدل ما أتجنن عليها)، ووضعها بعنف أمامى. قرأتها، وابتسمت، وكتبت (ليه بس خلينا نتفرج).

وضعتها أمامه بدوري فقرأها وأغمض عينيه بنفاذ صبر. فكرت قليلاً بأن حالته العصبية لا تحتمل بالفعل ما يجري فوقفت وفتحت أحد الأدراج خلفها وأغلقته سريعًا وقلت

_ الفأر فى المصيدة؟

وكما توقعت أخذت الحسناء حقيبتها وهرعت للخارج صائحة. ضحكت على هيئتها بينما نهض الدكتور محمود بعدم فهم لأننا لم نملك مصيدة من الأساس فكيف يكون بها فأر؟ فقلت بحماس

_ أهوه خلصتك منها زى ما قلت.

ظهرت أبتسامة متلاعبة على ثغره وقال

_ عشان كده بس؟ ولا فى سبب تانى؟

_ سبب تانى؟ زي ايه؟

_ يعنى.

نفيت وكأنى أبعد تهمة لا أعلمها عنى، فبدأ الحزن يسبح لمقلتيه وعاد لمكتبه شاردًا.

خرجت حائرة كالعادة فى الأونة الأخيرة فيما كان يقصد؟

****

بدأت بأعداد الشاى للدكتور محمود بنفسى بعد أنتهائه من بعض العملاء و بدأ فى مذاكرته بساعة. حتى أعفيه من حكايات " عم سالم العامل التى لا تنتهى.

فى يوم تأخرت حوالى خمس دقائق بسبب بعض الأوراق وقبل أن أطرق بابه فتحه.

أجفلت ثم ابتسمت. فقال بعبوس

_ إتأخرتى ليه؟ فى حاجة حصلت؟

_ إتأخرت على إيه؟ مفيش حاجة حصلت.

التزم الصمت لثوانى ثم أخذ الكوب ودخل مكتبه. أستغربت تصرفه فأنا من فكرت فى أدخال الشاى بعد ساعة من بدأ مذاكرته. فهل لاحظ ذلك؟ لمع بخلدى فكرة مشاغبته قليلاً.

فى اليوم التالى تعمدت التأخير خمسة عشر دقيقة. وكتمت بسمتى

على شكله الحانق المتململ بينما أضع كوب الشاى أمامه. فصق على أسنانه بغيظ وقال:

_ هاتى ساعتك.

_ ليه؟

_ هاتى بس.

نزعتها من معصمى، فنظر فيها ثم لساعته. تركهما ووقف متوجهًا للدولاب. أخذ مشرط ومزق غلافه وأقترب قائلاً بوعيد

_ لو ميعاد الشاى أتأخر تانى هدوقك ده ممكن يعمل فيكى إيه؟ إرتسم الذهول على صفحة وجهى. وتسائلت هل هو مدمن على شرب الشاى؟ ولكن لم ألحظ علامات الإدمان من قبل؟ اذا لماذا متشبس بميعاده هكذا؟

وددت سؤاله ولكن خجلت وأربكتنى إبتسامته التى بدأت فى الظهور. فهل قرأ أفكارى أم ماذا ورائه؟ أومأت بالإيجاب وخرجت تاركه التساؤل بجوار أخواته من أفكار تخصه ولم أجد لها إجابة.

****

بالرغم من إنشغال الدكتور محمود لم يفوته تخصيص بعض الوقت لنتشارك أحاديثنا اليومية فأستمتعت بمنطقيته وعقلانيته فى الحكم على الأمور بصورة محايدة كالعادة.

ذات مرة كنت أضع كوب

الشاى على مكتبه فقال

_ عايز أخد بريك، اقعدى نتكلم شوية.

جلست وأمسكت كتابه وتصفحته قائلة

_ هو إيه ده؟

ذكر اسمه باللغة الإنجليزية وبعض الأشياء عنه. فابتسمت بثقة

_ آه عارفاه مش ده بيدرسوه طلبة الحضانة.

تبسم ضاحكًا وقال

_ طيب أقرى وورينى شطارتك.

فتحت أحدى الصفحات وأشرت

_ شوف دى(اف) ودى (ذا) اهمم ودى (اى) ودى (ان) وفى كمان هنا (شي).
ثم رفعت عينى ونظرت له قائلة
_ صح ولا لا يا متعلمين يا بتوع المدارس؟ وقال حضرتك خمس سنين جامعة، وعايز تاخد الماجستير كمان عشان الكام كلمة دول.
_ "آيات"؟
_ نعم.
_ تتجوزينى؟
اختفت ابتسامتى، وأغمضت جفني، عقلي يتسائل هل ما وصل إلى مسامعى صحيح أم إحدي هواجسي؟.. عدت أنظر إليه من جديد وجدته مازال جالس مكانه ينظر نحو فقلت حائرة
_ عفوًا، مش سامعة، لا قصدي يعني مش فاهمة، لا أصل اااا.
_ أيات بقولك تتجوزييني؟
وقفت لا أعلم هل يجب على الهروب أم الاختفاء؟ فوقف أمامى وقال بترقب
_ قلتى ايه؟
صمت للحظة حائرة ثم أجبت
_ كنت متخيلة اللي بيننا تحمل مسؤلية منك أو اخوة مثلاً، مجاش فى بالى إنك تفكر كده.
_ وأدينى فكرت رأيك إيه؟
تنهدت بهم وقلت
_ أنت عارف بموضوعى اللي تحت وأنا....
_ لسه عندك أمل فيه؟

قلت بوجع صادق

_ إزاى وهو بيدبحنى كل يوم بحضوره وغيابه. لكن أنت اتنرفزت لما كنت سرحانة واتهمتنى أنى سرحانة فيه. مش هينفع لو سرحت تانى تظن الظنون أو تفكر إن لسه ليه معزة عندى. وكراجل شرقى مش هتنسى وهتندم إنك إرتبطت بواحدة ليها ماضى.

_ "آيات" انتي ليكى تجربة فاشلة، وأتمنى تنجح معايا.

وتنهد وقال بجدية

_ صحيح قلت الكلام ده بس ندمت عليه صدقينى.

_ خلاص إدى نفسك فرصة تعرفنى كويس وفكر تانى؟

_ فكرت، وقررت، وهتقدملك حالاً لو وافقتى. أصلاً كنت مأجل الفكرة لبعد الإمتحانات بس الظروف بتجبرنا نتخطب دلوقت.

_ الظروف أجبرتك؟ لأ معلش حضرتك مش مضطر لا تخطبنى ولا تتجوزنى من الأساس.

خطوت للخارج بغضب فاوقفنى بحزم. أنتظرت دون أن أستدير، فوقف أمامى واستجلب شهيق طويل وقال مطلقًا لزفيره

_ معلش يمكن خاننى التعبير. بس أقصد بالظروف إننا دايمًا مع بعض، ولأنك فى قلبى عايز نرتبط رسمى وعشان سمعتك وسمعتى. فهمتينى؟

فى هذه اللحظة كرهت تسرعى، وأومأت ببطء بالإيجاب. اعتذرت عن إرتفاع صوتى فصاح بسعادة

_ لا دي عديتها بمزاجى خليكِ فاكرة، أنما لما تبقى

مراتى هقطم رقبتك لو صوتك عليا، دا أنا راجل قوى علي فكرة.

ضحكت بسعادة ورفعت وجهى فأصطدمت بحب جارف بسبح في مقلتيه. سألتها بلهفه عن صدقه فأسرتنى بحنوها. قطع نظراتنا أشارته للمقعد خلفى بصوت متهجدًا بمرح

_على فكرة مش هتنفع وقفتنا كده خالص.

خجلت وجلست، فجلس أمامى وأكمل

_ الفترة اللي فاتت سألت عليكِ وده مش لأنى مش واثق فيكِ، بس كان طلب بابا لما فاتحته فى الموضوع ولأنك إختيارى وقرارى. واتفقت معاه أني هفاتحك النهاردة لأنى بجد مش عايز أضيع وقت أكتر من كده.

لم أستطيع الجلوس أكثر، فوقفت لأهرب من كلامه ونظراته فمنعنى ثانية وقال برجاء

_ "آيات" عايزك تعرفى إنك لو وافقتى هكون أسعد أنسان فى الدنيا ووعد هحميكى بعمرى.

أومأت بخجل وخرجت مسرعة أتنفس الصعداء.

****

مرت الأيام وأنا أتذكر أهتمام محمود وحمايته الدائمة من "أدهم" وغيره. استخففت من غبائى وعدم فهمى تلميحاته ونظراته ولكن قلبى قد أصبح كهف قديم متهالك الأركان عفي عليه الزمن. هل سيستطيع ترميمى؟ إبتلعتنى الحيرة، وزادت التساؤلات، ولم أجد شاطئ أرسوا إليه.

أثناء ترتيب مكتبه صباحًا شعرت بألم مباغت فى ظهرى فلم أستطيع التحرك. عندما دخل كنت متكأة على مكتبه. القى السلام فلم أجيب أو أبتعد. وضع حاجياته على المكتب ودقق النظر لوجهى المتألم

_ تعبانة؟

تساقطت دموعى، فرفع كفه ليربت على كتفى ثم

أعادها بإرتباك لجواره وقال

_ فين الألم؟ معلش مش عايز ألمسك.

_ ضهرى واجعنى ومش قادرة أتحرك

قرب كرسى مكتبه وقال

_ حاولى براحة تسندى عليا، وهأكمل بيكِ لتحت.

جلست فقال بهدوء وهو ينظر لقدميه

_ أخدتى شاور قبل ما تنزلى؟

_ آه.

_ تمام.. طيب الألم ده حصل قبل كده؟

_ اممم

_ ليه مش بتاخدى بالك من نفسك؟ بتستعبطى على فكرة.

قالها بغضب وركل المكتب بقدمه بحده وخرج، ولكن حتي بعد جلوسي الألم لم يكف ودموعى لم تتوقف

حتى عاد يحمل كيس صغير وخلفهم الدكتورة نرمين.

سألت فى البداية عن حالى وقامت بتجهيز الحقنة التى كانت بداخل الكيس فخرج الدكتور محمود إلى أن ننتهى وأغلق الباب خلفه. بعد أن أطمئنت الدكتورة نرمين على حالتى تركتنى لتتابع باقى عملها فغفوت بدون شعور مع سكون الألم.

عندما دلف الدكتور محمود للمكتب وجدنى نائمة على كرسييه، كاد أن يعود أدراجه على الفور بينما خالفته أقدامه وجعلته يقترب. ابتسم بحنان وهو يتفحص

ملامحي ثم خلع معطفه وتقدم وأراحه على جسدى ليبثنى دفئه، ومع إقتراب ينذر بالكثير وقف لثانية ليمنع نفسه من التقدم أكثر وأستجلب أنفاسًا عميقة محاولاً السيطرة على ضربات قلبه حتى قرر الإبتعاد عن المكان بأكمل مؤقتًا، وبداخله يهمس

"ألم يكفينى عذاب قربها.. فحبيبتى مثل القمر.. كتب عليها خطر.. ممنوع الأقتراب.. والممنوع مرغوب.. لكن سأنازع للنهاية.. فقربها الآن مهلك.. وأنا رجل ضد الهلاك..".

تنهد محركًا رأسه يمينًا ويسارًا لينفض غبار تيهه قائلاً بخفوت

_ يا بنت الناس ارحمينى واتجوزينى يرحمك ربنا.

****

"صياد الغرام"

يتميز دائمًا صياد الغرام بحنكته، وصبره. يهوى المراوغة ويستمتع بأضطراب فريسته، وتخبط منحنياتها، وأرتباك خطواتها المتعثرة، وهى تبحث عن طريقه لتلوز بالفرار، مما يشبع رغبته بالنشوة، ويبث الثقه بداخله ويضيف ضياعها قوة له حتى ينقض عليها فى اللحظة الحاسمة..

ولكن لو نافس الصياد صياد، فماذا هو بصانع؟ هل سيظل على ثباته أم ستتزعزع ثقته بنفسه وتغلب رعونته صبره ويقع فريسة للصراع الجديد..

أستيقظت على عبق رائحة عطر رجالى ففزعت. تلفت حولى فكان المكان فارغ، ووجدتني متدثرة بمعطف بدلة رجالى ومن عبقها عرفت أنها لدكتور محمود. أنتبهت على طرقات رقيقة على الباب فسمحت بالدخول. كنت واثقة أنها لمحمود كما كنت أثق أنه كان بالخارج يعمل على حمايتى من المتطفلين لأرتاح. دخل مبتسمًا سائلاً عن حالتى فحاولت طمئنته واعادة معطفه له. غزى وجهه بسمة حنونة وقال

_ مش بردان خليه عليكِ انتي لسه صاحية.

وضع قلمه وأوراقه على المكتب قائلاً

_ شددت على الأستعلامات مش عايز عملاء النهاردة خالص ودخلت أذاكر هنا لقيتك يا باشا فى سابع نومه فطلعت أذاكر على مكتبك.

خجلت وأنكمشت بجاكته وحاولت تجاهل تلميحاته

_ حلوة ريحة البرفن اللى فى الجاكت على فكرة.

ابتسم ورمقنى بطرف أهدابه وقال

_ خلاص لما نتجوز إن شاء الله هستني واحدة هدية.

ضحكت بصوت عالى لمناوراته وقلت

_ أنت طمعان فيا بقي.

انتهت السعادة وأظلم قلبى بدخول "أدهم" يعتليه بسمة ساخرة وقال

_ ده بيقولوا الدكتور بيذاكر، بس سمعت صوت الضحك قلت أشوف بتذاكر إيه.

ونظر لى وقال باستهزاء

_ ما تضحكينا معاكى يا "آيات" هانم ولا أحنا ما بنعرفش نضحك. وقف محمود وقال بحزم

_ إسمها آنسة "آيات". أنتقلت نظرات "أدهم" لـ"محمود" وقال مستهزًا

_ وده من ايه يااااا دكتره؟ فأجاب محمود بثقة

_ إن شاء الله كلها أيام وهتبقي مراتى.

صدم "أدهم" وظل محدق بمحمود يترجم كلماته دون أن يغمض جفنه ثم أشار على محمود قائلاً

_ صحيح الكلام ده يا "آيات"؟

إزدادت دقات قلبى من ردة فعله، وتدثرت بمعطف محمود أكثر فخفض نظراته للمعطف ثم أرتفعت نظراته لوجهى بغضب

فأخفضت عينى وجلاً

_ مبروك.

قالها وترك المكان ملظى بحممه، فأخرجنى محمود من بؤرة مخاوفى قائلاً

_ فين تليفونك؟

_ فى الشنطة بره.

خرج وأحضر حقيبتى ووضعها أمامى وقد حسم أمره قائلاً

_ اتصلى بوالدك وبلغيه أني جاى أخطبك النهاردة.

نطقت بتردد لاحظه

_ بس ......

_ عندك اعتراض عليا؟

أجبت بهزة من رأسى بالنفى، فتنهد وقال

_ تمام يبقي كلميه.

أومأت بالموافقة وإن شابها التردد، وبالرغم من تسرعِ قرارى وخوفى من عدم قدرتى لأعطائى حقه إلا أنى أريد هذا الرابط الذى يبيح أمتلاكى لشخص مثل محمود لأنعم بدفء عبق حبه، وأتلذذ بمودته، وتهدأ نفسى اللاهثه من البحث عن الحماية والأمان. أمسكت الهاتف وقمت بالأتصال بوالدى وعندما وصلنى صوته القيت التحية فبادلنيها قلقا، فطمئنته وقلتً

_ فاكر الدكتور محمود اللي قلتلك انى بشتغل معاه دلوقت؟

_ ماله؟

_ كان عايز ييجى يقابلك.

_ ليه خير؟

بلعت ريقى بصعوبة وقلت

_ عايز يخطبنى والمفروض الميعاد النهاردة.

_ يعنى إيه المفروض؟ هوكان قالك قبل كده؟

_ آه.. بس كنت بفكر. أرتفع صوته قائلاً

_ يا بنتى طيب قولى ونفكر سوا مش كل حاجة في حياتك ما نعرفهاش إلا متأخر كدا.

تلعثمت معتذرة، فتنهد وصمت برهه ثم أكمل بهدوء

_ خليه يتفضل بعد صلاه العشاء إن شاء الله.

_ حاضر هقوله.

_ فى حاجة تانية.

فقلت بارتياح

_ لأ شكرًا مع السلامة.

_ مع السلامة.

أغلقت الهاتف وأخبرت محمود بالموعد ووقفت لأخرج فأستوقفنى قائلاً

_ أقعدى عايزك شوية.

جلست فقال بحسم وبدون مقدمات

_ إن شاء الله هتفق مع والدك هنكتب الكتاب على طول وهتكفل بكل المصاريف.

_ بس إحنا الحمد لله ظروفنا المادية كويسة وبابا عامل حساب جوازى.

_ شوفى يا "آيات" أنا عندى شقة فى بيت بابا فى

المدن الجديدة مفروشة من كل حاجة. عايزك بشنطة

هدومك وكفاية على أهلك أنهم علموكى وصرفوا عليكى لغاية لما هتتجوزى. كل اللي بطلبه وأحب يكون فى مراتى إنك تتقى الله فيا وفى بيتى وأولادى ويكون التعامل بيننا بالحسنى وما تخافيش إن شاء الله هاقدر أقنع والدك باللي بقوله ولو

وافق يبقى كتب كتابنا ممكن نقول يوم الخميس أو الجمعة الجاية ان شاء الله. موافقة؟

_ لو اتفقت أنت وبابا موافقة.

ابتسم وقال

_ طيب ليا طلب.

أومأت بالإيجاب فأكمل

_ عايز أكول معاكى وطبعًا والدتك معانا وانتي بتختارى فستان كتب الكتاب وبلاش موضوع الميكب والحاجات دى يومها ولو ضرورى تبقى بعد ما نكتب الكتاب وترجعى البيت تيجى واحدة تعملك حاجة خفيفة كده وما تظهريش بيها قدام الرجالة.

_ ماشى.

قولتها بخجل فابتسم ومد كفيه على المكتب وقال

_ والشبكة؟

_ زى ما تتفق مع بابا وممكن تكون حاجة بسيطة على حسب ظروفك.

فضحك وقال وهو يعود بظهره للخلف

_ الحمد لله بابايا أنا كمان كان شايلى مبلغ كويس عشان فرش شقتى بس أنا خليته للشبكة وجهزت الشقة من شغلى، وعندى صيدلية هدية من جدى لما دخلت الكلية يعنى كان فرحان بيا كأول حفيد فى العيلة وكده بس لسه عايزة تتشطب فأجلت الموضوع ده شوية.

_ ما شاء الله ربنا يخليهملك.

_ اللهم آمين.

_ يلا خدى أجازة باقى اليوم عشان زمان مامتك محتاسة، عارف أني دربكت الدنيا بس من أولها بقولك هوصلك.

_ مش هينفع.

_ طيب هاتى التليفون وأنا هكلم باباكى وأقوله هجيبها وآجى أخطبها دلوقت.

_ لأ أتكسف أقوله أروح معاك من أولها كده. طيب توصلنى بس هنزل فى مكان قريب من البيت.

فابتسم وقال

_ ماشى يا ست البنات.

****

الضياع الثاني عشر
"وفاء بالعهد"

تقابلت مع دكتور محمود بأسفل بناية الشركة، أقتربت منه بسعادة وابتسمت بإعتذار

_ معلش هشترى حاجة من السوبر ماركت القريب ده.

_ مفيش مشاكل، تعالى هدخل معاكِ.

_ بلاش لما تبقي رسمى أحسن.

_ حاضر يا ست البنات أمرك. خلاص هروح أجيب عربيتى هنا وهستناك بس ما تتأخريش.

_ حاضر.

تركته ودخلت السوبر ماركت أمام عينيه، غافلة عن من كان يراقبنا من بعيد.

حملت سلة وتجولت بالمكان بيسر لقلة الزبائن فى هذا الوقت حتي تفاجأت بـ"أدهم" يقبض على مرفقى ويديرنى بشراسة

_ إنتي اتجننتى عايزة تتجوزى يا أيات؟

دفعت يده متقهقرة للخلف وقلت بحيرة غاضبة

_ عرفت إزاى إنى نزلت؟ بتراقبنى؟

أخرستنى نظرته الوحشية الهازئة من تأخر معرفتى بمراقبته، وأقترب خطوة عدت على أثرها خطوتين بجزع وتحولت نبرته لعشق هامس

_ فاكرة يا "آيات" ازاى كنتى بتحبينى وبتخافى عليا، عايزة تنسى كل حاجة حلوة بيننا وتجوزي حد غيري؟

سحب شهيق عميق لصدره أتبعه زفير بطئ وهو يعاود حديثه

_ لو بتعملى الفيلم ده عشان اتقدملك، ماشى يا ايات فكرتك وصلت، هرتب أمورى بس واتقدملك. المهم ترفضي محمود نهائيًا عشان شكله عايش الدور ومتعشم قوي إنك تكوني ليه.

أختنقت من أصراره لعودتى لماضى معتم، فتشبثت بأنتزاعى من بين فكيه

_ طيب ومراتك؟ مش ده السبب اللي قولت إنه يمنعك تتجوزني؟ هتعمل فيها إيه؟

تبدل كثعبان يهيم عشقًا بفريسته، وقال بفحيح حاقد

_ مش لازم تعرف، ولا لازم حد خالص يعرف. أمال عملوا الجواز العرفى ليه؟ أكيد عشان اللي بيحبوا بعض زينا والظروف معنداهم يقدروا يتمسكوا ببعض ويقفوا قدام سخافات التقاليد والعادات ويكملوا فرحة قلبهم سوا.

كنت أعلم أن كل ما يريده أدهم هو رغبة، إن تملكها سيلقى بى على قارعة الطريق. عزمت على الرحيل من أمامه مشمئزة من تفكيره فتمسك بساعدى وضغط على اسنانه قائلاً بسخط

_ الظاهر الدكتور بتاعك عصاكِ عليا، بس دى غلطتى أن سبتك تعملى اللى عاوزاه وقولت يا واد خليها براحتها. دلوقت حالاً هتيجى معايا وهعرف أرجعلك عقلك بطريقتى.

سقطت دمعة مهزومة، وأشتعلت مقلتى بخريف القطرات المتزاحمة وأعجزنى خوفى عن مجابهة غضبه، فأقترب بوله

_ أياتي.. تعالى نلحق الباقى من عمرنا بلاش نعاد نفسنا. عربيتى بره هنروح شقتى ونتكلم هناك براحتنا في كل حاجة.

رفضت الخضوع لعرضه المذل، فتوحشت ملامحه وهددنى بقتل محمود لو تزوجته.

أرتعب قلبى وترجيته أن يخرج محمود مما يحدث بيننا، فما ذنب شاب كمحمود ليضيع عمره ومستقبله فى دوامتى.

ظهر أحد العاملين، فهرب وحش كاسر من بين حنايا أدهم وجذبنى جذبًا للخارج.

صارعت تحطم نبضاتى على صخرات الخوف الوعر ومع أقترب العامل منا بعد أن شك في طريقة وقوفنا آلقيت سبت المشتروات علي "أدهم" وركضت للخارج.

وجدت محمود واقفًا مستندًا بظهره على سيارته فاسرعت وتشبثت بذراعه بقوة، ونظرت خلفى برعب. أعتدل متفاجًا من تصرفى فلم أجد غير دموعى شفيعة فعلتى، كما لم أملك رفاهية البعد عنه. تمعن بهيئتى وارتعاشى فتوسلته قائلة

_ ربنا يخليك روحنى بسرعة من هنا.

تجهم وجهه، ودار بعينيه بغضب حتى أستقرت علي "أدهم" خلفنا بعدة أمتار فقلت

_ بالله عليك ماتسبنيش ليه.

_ عملك إيه. أنطقى؟

_ ماعملش ماعملش، بس روحنى.

تمتم بسخط وفتح باب سيارته وركبت. دار حول السيالاة وركب وانطلق بثورة تزداد بداخله مهما حاول كظمها.

****

جميعنا يتمنى أن يجد من يحبنا بصدق، لاجلنا وفقط دون أى نوايا أو رغبات أخرى ولكن ما أن نعثر على هذا الحب تتباين ردود أفعالنا.

منا من يعتبر الحب نعمة ويتمسك به للنهاية، ومنا من يطيع تمرده ويتبع شهواته ويبحث عن صيد جديد وهو متأكد أن فريسته ستظل رهن أشارته مهما ابتعد وهذا هو "أدهم". فقد صدمه الواقع بشدة.

كيف أكون فريسته وأبتعد عن شباكه التى نصبها بحرفية خبير. ظن أنى سأعود بعد أن يشطرنى عذاب الفراق لأخضع لشروطه وأوامره وأركع لطلب الصفح والغفران ويتدلل هو حتى يمن بهم. والأن يشعر بفراغ قلبه. فهل أحب حقًا أم هى مجرد نزوة كسابقاتها؟

عندما رأى أبتعادى مع محمود أحس بوجع لم يختبره من قبل وشعر أن فؤاده يغرق فى فيضان الفراق. أخذ يشرب من عزم الامبالاه ليصدم بكأس القهر الذي تجرعت منه النساء على يديه. فهل آن الأوان لأخذ الثأر للقلوب التى حطمها فيما مضى؟

****

_ إمسحى دموعك وفهمينى هو مش هيشوفك دلوقت.

نطقها محمود بعد أن ابتعدنا عن "أدهم" وأصطف سيارته بجانب أحد الطرق.

حاولت التماسك وتجفيف دموعى وقصصت عليه ما حدث وتهديد "أدهم" بقتله لو أتممت الزواج.

عندما أنتهيت لم يعلق وقام بتشغيل السيارة وأنطلق. توقف على مقربة من بنايتى وقال

_ إن شاء الله هتكلم مع باباكِ ومش هتروحي الشغل تانى.

_ دكتور محمود خلاص بلاش مغامرة دب بالله

عليك، روح يا ابن الناس شوف طريقك وأنا بحلك من أي وعد وصدقني أنت ألف واحدة تتمناك.

_ أنزلى.

قالها بأمر فنظرت له نظرة أخيرة مودعة وترجلت من السيارة وسرت بضع خطوات ضائعة مثقلة بهمومي. انتبهت على خطواته التي تتبعني فوقفت ونظرت له بحيرة. رفع هاتفه وقام بالأتصال بى. تناقلت نظراتى المشتته بينه وبين الهاتف. أستقبلت أتصاله بعد أن أشار لي أن أجيب فقال بمرح

_ يلا يا بنتي أمشى. متنحه كده ليه؟

استمرت نظرتي له لم تتغير فأختفت أبتسامته الزائفة وقال بقلق

_ "آيات" بجد خلى بالك من نفسك وما تقفليش الخط لغاية ما تشاوري من شباك أوضتك عشان أطمن عليكِ.

أومأت بالإيجاب، وصعدت لمنزلى وأسرعت لنافذة غرفتى، وأشرت له فقال

_ عايزك النهاردة أحلى عروسة فى الدنيا ومش هرجعلك إلا وأنا جايب حقك.

_ هتعمل إيه؟

_ خلى بالك من نفسك وحافظى عليها علشانى.

_ لا إله إلا الله.

_ مُحَّمَداً رسول الله.

أغلقت الهاتف وجلست أنتظر ما أخفاه القدر.

****

تعددت أتصالاتى بمحمود دون رد، وغرقت فى موجة عاتية من القلق. إنتشلتنى منها استدعاء والدتى لأساعدها. ساعدتها بتيه فنصحتنى بالعودة لأستريح بغرفتى.

تركتها هائمة ولكن كيف أهنأ بمضجعى ومستقبله قد يضيع بسببى؟ مر الوقت بطيئًا مملاً حتى دخلت والدتى

_ صحيتى يا "آيات"، طيب قومى أجهزى.

اعتدلت بشرود وتجهزت، وجلست أمام عقارب الساعة لتكمل دهس دقات قلبى بجبروتها. صوت والدى يرحب بمحمود إنتشلنى من زوبعتى وبدون تفكير أمسكت هاتفى وكتبت (كنت هموت من القلق، مش بترد عليا ليه؟).

أرسلتها على إثر دخول والدتى قائلة باستفهام

_ هو جاى لوحده ليه؟

_ مش عارفة.

_ لو أهله مش موافقين إحنا مش هنوافق. سامعة؟

أنهى الخوف المتبقى من تماسكى وتركتني وخرجت

دون أن تسمع لي. عندما أنتهت جلستهم خرجت

ونظرت لوالدى بتوجس بعد مغادرة محمود فجلس

وقال بهدوئه المعتاد

_ باين عليه ابن حلال، ولسه هسأل عليه. بس مستعجل قوى عايز لو وافقنا يكتب خلال أسبوع عشان مناقشة الماجستير بتاعته بعد 3أسابيع. وكمان مش عايزك تشتغلى يا "آيات"، موافقة على الكلام ده يا بنتى؟ فقالت والدتى بغضب

_ هو جاى يتشرط علينا ولا ايه لا احنا ما ينفعناش الجدع ده؟

_ لا يا ماما هو قال ليا على الطلب ده من الأول عشان أخد راحتى في التفكير، وأنا وافقت وعشان كدا كلم بابا عليه.

حاولت منع ما سيحدث بهذا الرد الذي ألهمني به الله سريعًا، فأكمل والدى

_ شوفي هو بيقول إنه جاهز من كله فعرفته انى
فلوس جهازك موجودة برضوا ولو فيه نصيب سواء إشتريتى منها أو لأ دى فلوسك وهتفضل ليكِ، لكن إللي يهمنى إن التعامل بينكم يكون بالحسنى.
فقالت والدتى بحنق
_ أهله فين؟
_ هو جه عشان يشرح ظروفه، ويدينى بياناته، وهيتصل بعد يومين يأخد الرد ولو وافقنا هيجيبهم نتعرف على بعض ونقرأ الفاتحة ويوم الخميس أو الجمعة يكتب الكتاب فى المسجد.
ثم نظر باتجاهى ولمحة سعادة بادية ببؤبؤ عينيه وقال
_ عارفة يا "آيات" لما قال عايز يكتب فى المسجد كبر فى نظرى وتفائلت خير.
_ طيب مستعجل ليه ما يخلص الماجستير الأول عشان ناخد وقتنا نجهز ونعزم الناس.
قالتها والدتى بحدة فرد والدى
_ مش مهم الأستعجال المهم انه يتقى ربنا فيها لما تبقى فى بيته. وما تنسيش قول الرسول ﷺ (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) صدق رسول الله ﷺ. هقوم أنام وبكره هسأل عليه فى العناوين اللي كتبها، وانتي يا "آيات" ما تروحيش الشغل اليومين دول لما نشوف الموضوع ده هيرسى على إيه.
أومأت بالموافقة ودخلت غرفتى وصليت أستخارة، وغرقت فى التفكير بغير هدى حتى غفوت فى وقت متأخر.

****

مع رنين هاتفى أستيقظت، واجبت بنعاس

_ السلام عليكم.

_ وعليكم السلام. لسه نايمة يا كسلانة؟

_ أنت مالك، وبعدين ...

قلتها بحده وأود العودة سريعًا للنوم مرة اخرى، فقاطعني قائلاً

_ أستهدى بالله يا "آيات" أنا محمود والساعة 10 الصبح. اعتدلت وقلت

_ محمود؟ قصدى دكتور محمود.

_ لا إنسى دكتور وأبتدى تفكرى هتدلعينى إيه يا عروستي؟

خجلت من مزاحه وقلت

_ إيه اللي بتقوله ده؟

_ قلت إيه؟ بقولك فكرى مش عيب يعنى أنتِ متعلمة واكيد اضطريتي تفكري في يوم من الأيام.

تخصبت وجنتى بالحمرة ولعبت فى أزرار بلوزتى بصمت. فقال والأبتسامة تزين محياه

_ طيب خلاص إيه الكسل ده مش زمانك فى مكتبك؟

تصنعت الحزن وقلت

_ أعمل إيه أوامر عليا من الريس بتاعي.

_ طيب مش كده أحسن؟

_ عارف بجد بشكرك من قلبى.

_ لا شكر على واجب يا حرمنا المصون المستقبلية.

ابتسمت، وأعدت خصلة تمردت خلف أذنى وقلت

_ شفت رسالتى؟

_ لما وصلتنى كنت مع والدك، ومينفعش أنشغل بالتليفون فى وجوده بس فتحتها لما روحت وقلت أكلمك بكرة عشان مش عايز أعملك مشاكل.

_ طيب أحكى عايزة تقرير مفصل.

_ إيه يا ست البنات هتبتدى من دلوقت تطلبى التقارير؟

قالها بمشاكسة فأجبت بخفوت وقلبى يحلق بسعادة لم أتوقعها

_ آه. فى مانع؟

_ لا مانع إيه انتي تؤمرى يا حبيب .....أحم أحم.

ابتسمت بنشوة فأكمل وهو يمسح على جبهته

_ ابدًا يعني، قصدي لما سبتك روحت القسم لواحد صاحبى وخليته جاب"أدهم" وبهدله وهددته بعدم التعرض ليكِ وإلا هتبقى الشكوة رسمية المرة الجاية.

كعادة لحظات سعادتى يدخلها "أدهم" عنوة زارعٍ الخوف بداخلى فقلت بفزعٍ

_ أنت إزاى تعمل كده؟

_ صوتك ما يعلاش عليا تاني يا "آيات"، قولي كل اللي عندك براحتك بس احترمي موضوعِ الصوت ده من فضلك.

قالها بحده فرددت بحده أكبر وأنا أقبض على خصلات شعرى بشدة

_ طيب أنت كده وقعتنا فى مصيبة كبيرة، اذا كان

بيهددنى من غير حاجة دلوقت هيعمل فيا وفيك إيه؟

_ ولا حاجة دا أنسان جبان. تعالى شوفيه وهو هيبوس رجلى عشان أسامحه. غير كده انتي هتبقى مراتى يعنى مش هعمل حاجة تضرك ومحدش هيحس بالموضوع ولا هيبعتلك.

بس كنت عايز أوصله انى عرفت بكل حاجة ويحس إن الموضوع دخل فيه راجل عشان يخاف. و انتي ما تخرجيش إلا ومعاكى راجل وإن شاء الله لما أجيب أهلى هجيبلك خط جديد عشان تغيرى رقمك.

_ ربنا يستر وخلى بالك من نفسك محدش عارف ممكن يعمل إيه. _ حاضر بس أهدى عشان أكمل كلامى.

تنهدت بهم وقلت

_ اتفضل.

_ بعد ما خرجت من القسم رحت للمدير العام البيت.

_ أنت تعرفه لدرجة يدخلك بيته؟ قلتها باستغراب فابتسم وقال

_ هو صاحب بابا من زمان فعارفنى، المهم روحت أتكلمت معاه وطبعًا مجبتش أسمك مباشرة بس أتكلمت عن أدهم عمومًا فقال أنه هيتحول للتحقيق قريب وأحتمال يتفصل. فهتفت بجذع

_ لا يا محمود إلا أكل العيش.

_ يا "آيات" ده في بلاغات مقدمة فيه عند مجلس الأدارة مش هتصدقى قد إيه وغير الأختلاس اللى أكتشفوه قريب والعميلات اللي اتحرش بيهم.

_ معقول؟.. دا أنا كنت بقول بيعمل كده معاهم عشان عايزنى أوافقه على كلامه. أنسابت الكلمات من شفتي بينما أتذكر لمسات أدهم المحرمة، وقطع شرودي واستكمال مهاتراتي صوت يشبه صليل السيف فأدركت فداحة كلماتى على الفور. صمت مصدومة ولم أجب عليه فزفر محمود بغضب وأنهى المكالمة.

لم أجد كلمات أعتذار تجابى ما أقترفته من أثم في حقه. خيم الحزن على قلبى فكيف ستكون حياتنا و"أدهم" يتوسطها في كل شئ. لو رويت لمحمود كل ما حدث بالتفصيل هل سيتفهم أم سيصبح عقبة فى حياتنا ويهجرنى للأبد.

ولو أعلنت رفضى لزواجنا هل سأجد من يتفهمنى ويقف معى أمام دروب الحياة كما فعل؟ و"أدهم" ماذا سيفعل اللأن؟ سيبتعد أم ستأكل النار قلبه وينتقم منا؟ هل أخطات بقبولى بمحمود أم هو عين الصواب؟ هل سأحبه أم سيظل قلبى فارغ تتخبط الرياح بين جوانحه؟ أتمنى أن تنتهى كل هذه الصراعات وتفتح لى الحياة نافذة لأنسى كل تعقيداتها.

****

حضر محمود وعائلته للتقدم للخطبة رسميًا بعد ما أبلغهم والدى بالموافقة. وتم الأتفاق على كل الترتيبات. أستدعتنى والدتى للقائهم وكنت أشعر بالتوتر بشدة. بعد السلام جلست وقرأنا الفاتحة وما أن أنتهينا حتى وقف حمزة أخو محمود وأطلق زغروته صغيرة بينما زجره والده فعاد لمقعده قائلاً بمرح

_ معلش يا جماعة أخويا الوحيد وما ينفعش تتقرى فاتحته سكيتى كده.

ضحكنا على خفة ظله بينما شعرت بمحمود ومحاولته لكتم غيظه منه. قامت والدتهم بإهدائى خاتم ذهبى وترقرقت عينيها بالدموع وقالت

_ النهاردة أنا أسعد أم فى الدنيا. كنت بحلم باليوم اللي هخطب فيه لمحمود.

_ ربنا يخليكى يا طنط وإن شاء الله أكون بنتك أنا كمان.

أتسعت ابتسامتها وتبادلت نظرات الفرحة بينها وبين محمود فقال والده

_ ألف مبروك يا عروستنا.

_ شكراً ياعمى ربنا يخليك.

أنبهرت بشخصية والد محمود وكلامه المتزن، والحكيم ومدى التشابه بينه وبين محمود فى الشكل والطباع. أتفقنا على النزول بصحبة والدتى ومحمود لشراء الشبكة وفستان كتب الكتاب. طلبت من والدة محمود رفقتنا، فأحتضنتنى وقالت

_ انتي الظاهر هتعوضينى عن عدم خلفتى للبنات. أهدانى محمود علبة مغلفة، وطالبنى حمزة بفتحها أمامه بخفوت دون أن يسمعه والده.

وافقت، وفتحتها خجلة من الموقف بأكمله وكان بداخلها هاتف جديد. قمت بتشغيله وتصنعت الأنشغال به لأخفى توترى من الأعين المترتكزة على أغلب الوقت. وجدت به رقم مدون بأسم (عاشقى).

أتسعت أبتسامتى ونظرت لمحمود خلسة وكأنه ينتظر، ردها بطريقته فخجلت وعدت لأتصنع الأنشغال بالهاتف حتى جلس حمزة على الكرسى المجاور وقال

وهو يضع كفه على صدره

_ حمزة. ثالثة ثانوى وبحب الضحك والهزار غير بابا ومحمود خالص على فكرة.

_ واضح على فكرة.

_ شوفى بقى... هما حاولوا يوصونى أكون تقيل زي الكابتن خطيبك، بس زى ما أنتي شايفة مفيش فايدة. ومن الأخر كده كنت مستنى الواد محمود أخويا يخطب عشان أشوف خطيبته هتناسب طموحاتى كزوجة أخ ولا هتبقى نفر زيادة فى العيلة وتتركن علي الرف.

نظرت له بعدم فهم فأكمل

_ يعني مثلاً أكيد لما هخطب هاخد رأيك فى عروستى بما أنه مش هيكون حيلتنا بنات غيرك وهتكون سلفتك مستقبلاً.

_ طبعا ده يشرفنى يا حمزة.

_ الله عليكى يا خطيبة أخويا، والله شكلنا هنتفق ونظبطهم.

أنتقل من جوارى ليجاور والدى قائلا

_ شوف يا عمو بنتك شكلها كدا جدعة وكفاءة، ووعد هتبناها وهيكون ليها مستقبل مشرق على إيديا. ولو الواد أخويا زعلها هخدلك حقها من غير ما تتعب وتيجى تتخانق ولا هيا تتشحطط بعيالها الخمسة وحركات الأفلام دى.

ضحك والدى وربت علي كتفه وقال

_ ربنا يباركلنا فيك يا ابنى، وده عشمنا برضوا.

أستمرت الجلسة بين نكات حمزة تارة، ونظرات محمود تارة أخرى حتى أنتهت بوعد باللقاء فى الغد.

****

الضياع الثالث عشر
"انكشاف السر"

أصطحبنا محمود لشراء الشبكة ونصحتنى والدته أن أنتقى ما يعجبنى بأريحة ورايهم ليس إلا للمشورة. تفاجأت بصورة الحماة المتغيرة عن تلك التى رسخها الأعلام بعقولنا. جلست بجوار والدتى يتبادلون أطراف الحديث بينما وقفت مع محمود لأنتقى شبكتى.

أخترت طقم ذهب بسيط فاعترض محمود. حاولت تذكيره بأن هناك مصاريف أخرى تنتظره، فأصر على رأيه وتركنى وأتجه للجواهرى واختار طقم أخر. وقال

_ ايه رايك فى ده؟

_ الله حلو قوى، بس أنا أخترت خلاص.

ابتسم وطلب أحضار فاتورة الأثنين فأقتربت منه وقلت

_ خلاص هات التانى بس.

_ هش خالص يلا إقعدى جمب مامتك وحماتك لغاية لما أحاسب.

توجهت للجلوس بجوارهم الى أن أنتهى. خرجنا متجهين الى أتيليه الفساتين وعند وصولنا ترجلنا جميعا من السيارة فوقف أمامى فسبقتنا والدته ووالدتى فقال

_ شوفى أختارى اليعجبك ضيق، قصير، قالع راسه، لابس رجليه اليعجبك أنا عارف البنات وحركاتها لكن من دلوقت نتفق انك هتلبسى ملحفة تغطيكى كلك.

أومأت بخجل وتركته لأختار فستانى بينما جلس بالسيارة سارح فى شعاع العسل الذى أسره.

****

فوق سقف جدران عشقك أنتظر دعوة للخلاص..

لم أضع فى الحسبان أنك خلقت لتحتل مملكتى..

حتى أقتحمتيها فجأة.. ودككتى حصونها بغته..

وأشعلتى اللهب بقلبى.. فرفعت رآيات النصر..

وجعلتينى مسير فى دروب عشقك حتى خط النهاية..

أسدلت ستائر الماضى، وأنقشعت الغمة. رحل الليل، وحل الصباح. أعتلت شقشقة العصافير منبر نافذتى فأيقظتنى على يوم عقد قرانى. أصبحت سعادتى لا تضاهيها سعادة، وسقف أحلامى تخطى الأفاق، وأنا على ثقة بأن الله سيجبر كسرى ويعوض قلبى بما هو أفضل.

أكتملت نشوتى الصباحية بأتصال محمود واصفًا سعادته بيوم تمني أن يجمعنا.

جعلنى أحلق فوق السحاب بحب الذى خلق لأجلى.

كان محمود يتأكد من أكتمال كل شئ يخصنى بنفسه وبالرغم من تحذيراته وشروطه الغير منتهية لم أغضب أو أمل بل كنت بحاجة لمن يحتوينى ويخفينى عن عيون المتربصين للفرص.

مر الوقت وأذن لصلاة العصر ونحن بالمسجد. بعد الصلاة بدأ عقد القرأن وأنتفض قلبى مع كل كلمة رددها محمود خلف المأذون ليسحبنى لعالم خلق ليجمعنا.

فرت دمعة هاربة منى وهو يقتحم أسوارى، ويعلنها أمام الملا أنى من الأن فى كنف رداء حمايته، ولم يتركنى للأيام، فسقط عنى قناع الخوف، وعجز لسانى عن الرد.

بعد الأنتهاء من الأجراءات أجتمع الناس بين مبارك ومهنئ. وقف محمود يقبل جبهتى وهمس بالقرب من ملتحمة أذنى وهو يتنهد

_ مبارك عليا وجودك فى حياتى.

_ الله يبارك فيك.

قلتها بإرتباك خجل فغلغل أصابعه باصابعى فأقشعر بدنى. توترت من الأعين المحيطة فأقتربت هامسة

_ سيب ايدى.

_ لا.

رفعت عينى لوجهه المبتسم بشدة وأشرت بطرف مقلتى على المحيطين. فأحتوانى بمقلتي عاشق فاسقط سهم السعادة بقلبي. أرسل بنظراته وعود فغرق نهر العسل بعبيرها. أبعدت نظراتى عن بوح مقلتيه بحياء وخرجنا من المسجد متجهين للبيت. أستأذن محمود والدى بأن أعود معه بسيارته وبالرغم من قصر المسافة، الا أنها يجب أن تحسب حياة فوق الحياة فمثل هذه السعادة لا تتكرر. تمسك بكفى بقوة أثناء قيادته وهو يخطف النظرات للطريق ثم يردهم ليكمل كلمات بلغة العيون فوصل خجلى لمنتهاه. همست

_ مش هينفع كده.

زادت أبتسامته وهتف

_ مش مصدق انك خلاص بقيتى مراتى.

ابتسمت وأجبت مشاكسة

_ صدق خلاص أدبست ومفيش مفر.

ضحك ملئ شدقيه ونمق باقى حكايا الغزل بطريقته الخاصة. وصلنا للبيت فأسرعت لغرفتى حيث مصففة الشعر التى كانت بانتظارى. أنتهيت معها وأرتديت فستانى وفوقه الملحفة وخرجت لغرفة النساء.

حضر الجميع لمباركتى ودخل محمود لالباسى الشبكة. أختلفت والدتى ووالدته على من تقوم بحمل الشبكة وكل منهن تؤثر الأخرى. وقف محمود وأمسك بالعلبتين وأعطى كل واحدة منهم علبة وقبل جبهتهن وقال

_ براحة كده كل واحدة تجيب خاتم أختها تجيب زيه والتجيب سلسلة التانية تجيب زيه وهكذا.

ضحكنا بسعادة. وأنكمشت بارتباك عندما لامستنى أنامله حتى أنتهى. قبل جبهتى مباركًا ثم أنصرف لمجلس الرجال على وعد بالعودة.

****

بعد مضى الوقت همست أمى بأذنى لأخرج لوالدى. خرجت فوجدته يطوق كتف محمود بذراعه وطوقنى بالذراع الاخرى وقال

_ شوف يا دكتور أنت دلوقت بقيت ابنى وبديك حته من قلبى حافظ عليها وصون الأمانة.

_ ربنا يقدرنى إن شاء الله وأحافظ عليها.

ربت والدى على كتفه وقال

_ ربنا يهديكم للخير يا ابنى. يلا ادخلوا أتعشوا سوا ولو عايز تقعد تتكلم معاها شوية عن حياتكم وتفهمها طباعك وتعرف طباعها وعندك النهاردة اليوم مفتوح تقعد معاها براحتك.

دفعنى والدى لجهته وقال

_ يلا خدى جوزك عشان تتعشوا فى أوضتك.

خجلت من كلمة والدي فلم اعتاد عليها ولم أتزحزح من مكاني، فأمسك والدى كفى ووضعها فى كف محمود ودفعنا للأمام مشجعًا. تقدمت بأرتباك تجاه غرفتى

ودخلت وتركته وأسرعت لكٍ اقوم بترتيبها بعد الأعصار المدمر الذى لاقته أثناء تزيينى مع صديقاتى.

جلست أجمع الأشياء الساقطة أرضا بأحراج وقلت

_ معلش مكنتش أعرف أننا هندخل هنا، كنت وضبتها بعد ما خلصنا.

قطع تلعثمى جذبه لذراعى فأصطدمت به وتبعثر كل ما جمعته، وقال هامسًا وقد نضحت السعادة بعين محمود بدون مواربة

_ أول حاجة كان نفسى أعملها لما تكونى حلالى أن أقولك بحبك وعينى فى عينيى.

منذ دخولنا غرفتى تملكنى الأرتباك من تواجدى معه كزوجة وليس سكرتيرته حتي رفعنى للسحاب بكلمة الحلال فأرتوت صحراء قلبي من بعد ظمأئها بسبب من عشقته عشق عجاف.

أنسابت مدامعى وشكرته بداخلى على كل ما قدمه منذ أن رايته بالرغم من معرفته التامة بأوجاعى وحطام قلبى بعد صحوة عشق أجتاحنى فدمرنى. رفع وجهى بأطراف أنامله وقال

_ فى واحدة تستقبل جوزها بالدموع بدل ما مبروك؟

أبتسمت ومسحت أطراف جفونى وتمتمت

_ مبروك.

ابتسم بحنان وقال بمرح مشاغب

_ مبروك عليا أحلى "آيات" فى الدنيا. قوليلى بقى

عندك شعر ولا مكتفية ببروكة؟

زادت إبتسامتى وخجلت ولم أجيب، فبدأ فى نزع حجابى عنى ببطئ ثم أبتعد للخلف بإنشداه بعد أن أنسدلت خصلات شعرى حتى أستراحت أطرافها على أرضية الغرفة. أزدان وجهى بالحمرة القانية وهو يدور حولى بإنبهار

_ ده شعرك بجد ولا حركة من بتوع البنات؟

أومأت بالأيجاب بخجل شديد فهتف

_ دا شعر أميرة من الحواديت سبحان الله فيما أبدع.

أحتضن محمود وجهى بين كفيه وعينيه تنطق بالسعادة وقال

_ صحيح أتمنيت شعر مراتى يكون طويل وناعم بس عمرى ما خطر فى أحلامى أنه يكون بالروعة دى. أعملى حسابك عايزه مفرود على طول كده.

ابتسمت وشتت نظراتى وأنا أعض على شفتى فابتسم، وقبل باطن كفى وقال

_ بلاش حركت شفايفك دى ياما جننتنى أقسم بالله.

_ خلاص بقى.

همست بها وقلبى كاد ينفجر خجلاً فما زادته همستى الا أقتراب، وفى خلال ثوانى أبعدته عنى بعنف. نظر بذهول لنفورى منه فاضطربت كل خلية بجسدى بعدما أستوعبت حماقة رد فعلي. أستدرت حتى لا تفضحنى عبراتى بعد أن فشلت محاولتى بمحو الماضى السحيق من ذاكرتى فاختلط الحاضر بالماضى، فكيف سأفسر له الأمر.

أغتمت ملامح محمود بعدما ترجم تصرفى ولمعت صورة "أدهم" بمخيلته. تنهد بغضب حاول أخفاء حممه فطفحت حرارته على جسده. نزع سترته وألقاها جانبا واقترب وجذب ساعدى بهدوء وسار بي ثم اجلسنى على طرف سريرى ودار للجهة الأخرى وجلس.

جذبني لاستكين فوق دقات قلبه التى ما أن سمعت لومها حتى تشبثت بقميصه وأنسكبت دموعى بغزارة معتذرة عن ما لم أملكه. استمر يمسح على خصلات شعرى التى تملك حرية ضاعت منى منذ زمن فى حين ظل قلبى سجين أسرها. تكلم وهو يحاول ضبط أنفاسه الثائرة

_ للأسف توقعت اللي حصل بالرغم من إن كنت بلوم نفسي على سوء تفكيري. عشان كده فكرت لو كان ده رد فعلك لقربي منك أعمل عرض لليلة واحدة. اعتبريه عرض بمناسبة كتب كتابنا بس خدي بالك العرض هيكون لليلة بس يا تقبليه يا ترفضيه براحتك، ولو طلعت شمس النهار يبقا العرض أنتهى.

سألته بتوجس عن ماهية ذلك العرض فرد بثقة

_ تحكيلى كل اللى حصل بينك وبين "أدهم"؟

أبتعدت عنه بوجل فأكمل بإصرار

_ عارف أنه ماضى، وكنت ناوي مش هدور فيه وهبدأ فى كتابة حكايتنا سوا، بس لما يأثر الماضي على حياتنا وممكن لا قدر الله يدمرها يبقى لازم أعرف وصدقينى اى حاجة هتقوليها مش هحاسبك عليها بس لو إكتشفت بعد كده انك مخبية حاجة عنى، مش عارف رد فعلى هيكون ايه وقتها.

زاغت عينى خوفًا من رد فعله لو سمع حكايتي، فقال بتصميم

_ على فكرة لو هتحكى عايز أعرف كل حاجة مهما كانت وصدقينى ده مش هيأثر على ارتباطى بيكِ انتي خلاص بقيتى مراتى.

أطلقت زفرة طويلة لعلها تزيح كاهل الماضى واجد طريق للنسيان فكانت بلا جدوى.

_ صعب تصدقنى.

_ أحكى الحقيقة زى ما هيا وهصدق.

أعادنى بهدوء لأستكين على دقات قلبه، فأغمضت عيني والذاكريات تنهش روحى. لم أجد مفر من أن أتجاسر على الأحزان، وأكشف أسرارى كلها.

عندما أنتهيت كنت آلهث من رحلة العودة من الماضى المعتم، حتى المأقى لم تتوقف أستقطار نشيجها. لم يقاطعنى محمود بالرغم من وقوع كلماتى علي أذانه كسياط حامية، وأصبحت عينيه كلهب مستعر. سألنى عن أى شئ أخر أخشى البوح به، فأومأت بالرفض. فقال بحزم

_ قومى أغسلى وشك.

وددت التغلغل بأفكاره، ولكنه نهض مشيحًا عنى. توجهت للحمام الخاص بغرفتى وعندما عدت وجدته يقف أمام النافذة بشرود .

قد يكون الصمت أبلغ من الكلام..

فرب صامت ينضح قلبه من العويل..

ورب كلام ثرثار لا معنى له ولا مجيب..

جلست أراقبه بحذر ولم أقتحم عزلته حتى أستدار ورأنى فأغلق النافذة بغضب فأسرعت قائلة

_ ما تخافش محدش يقدر يشوفنى من هنا. أشاح وجهه صامتًا فأقتربت منه متوجسة

_ معلقتش على كلامى؟

_ كنت عايز أسمع مش أعلق.

_ طيب هتعمل ايه؟

أغمض عينيه بشدة وسحب شهيق طويل، ثم ناظرنى قائلاً

_ شوفى يا "آيات" كلامك مش سهل على أى راجل يسمعه. بس كنت عايز أفهم منك عشان لو حاول يوحي ليا انه كان فى حاجة بينكم ما أظلمكيش.

أبتلعت ريقى وودت تغيير الأجواء فقلت

_ طيب ممكن تيجى تأكل لقمة الأكل برد؟

أختلجت عضلات فكه وهز رأسه رافضًا، فهمست مضطربة

_ عشان خاطرى، شوية بس عشان محدش يتكلم معايا بعد كده.

وافق وجلسنا نأكل بصمت. وأنشغل عقل محمود بحوار خاص وخشيت أقتحامه فينقلب بالسلب على علاقتنا فأثرت الصمت. بعد العشاء تنحنح محمود طالبًا للرحيل وأخرج بعض الأموال من معطفه ووضعهم فى كفى وقال بمرح

_ أتفضلى أدى مصروفك.

_ لأ معايا والله.. شكرًا.

_ إنتي دلوقت مراتى ومسئولة منى واى حاجة تحتاجيها ما تطلبيش من بابا تانى أتصلى بيا فى اى وقت وأنا اجيبهالك وهكرر مفيش طلوع من غيرى أو على الأقل مع باباكى وتدينى خبر قبل ما تخرجى عشان اطمن عليكِ.

_ حاضر.

تركته وفتحت درج مكتبى وأخرجت شريحة تليفونى القديم وقلت

_ أنا حكيتلك كل حاجة وعشان تثق فيا فكرت أديلك دى. وضعتها بكفه فكسرها لنصفين والقاها على المكتب وقبل جبهتى وقال

_ انتي مراتى يعنى مش لسه هختبرك، يلا تصبحى على خير. تلحفت بالملحفة وخرجت لأودعه عند باب الشقة.

عدت وتوضأت وصليت واتصلت به. فقال بمرح

_ ايوه بقى يا محمود وبقيلك واحدة تديها التمام برجوعك للسرير؟

_ لا والله كنت بطمن أنك وصلت بالسلامة، وعلى العموم خلاص تصبح على خير. قلتها ضاحكة فهمس هائمًا

_ منذ أن ذقت طعم الشهد، ومازالت حلاوته فى فمى.

شهقت بخجل، وأغلقت آلهاتف على صوت ضحكاته.

****

مر أسبوع على كتب كتابنا انشغل محمود فيها بدراسته خشيت بعده بسبب ما سمعه فحاولت التقرب منه أكثر لأبعاد أى شك بداخله. قررت أن أحتفل بهذه المناسبة عند أستيقاظى.

فى الصباح تململت بنومتى بسبب لمسات بمنابت شعرى. وضعت يدى لاتحسسها فتفاجأت بشئ صلب. أنفرجت جفونى بعدم أستيعاب لماهيته فوجدتها ساعة محمود الممدد بجوارى. نظرت حولى وأدركت أنى مازلت بمنزل والدى. إذا كيف وصل لهنا؟ جلست فزعة وهتفت

_ بتعمل إيه هنا؟

_ يا صباح الفل والعنبر على مراتى الحلوة.

أبتعدت ومسدت شعرى على دخول والدتى تحمل صنية الأفطار وقالت

_ صحيتى يا يويو؟ يلا يا حبيبتى أغسلى وشك وأفطرى مع جوزك.

وقفت أتحاشى النظر إليه بينما قال محمود مبتسما

_ معلش يا طنط أعفينى، فطرت وجيت على طول.

_ إزاى يا ابنى دى أول مرة تيجى عندنا من بعد كتبت الكتاب، كل معاها حاجة صغيرة لغاية الغدا ما يجهز.

_ لا غدا ايه، أنا متفق مع عمى هقعد معاها ساعة بس، عشان عايز أنزل أشترى حاجات للرسالة.

_ والله ابدًا.. تبقى هنا وتمشى من غير غدا دا حتى عيب.

ابتسمت وأنا أمسح وجهى بالمنشفة وقلت

_ ما تخافيش يا ماما هكتفه بس ما تتاخريش.

_ إن شاء الله مش هتاخر، وباباكى هيجى بدرى عشان يسلم عليه طالما غالى علينا.

فقال محمود معتذرًا

_ معلش يا طنط الرسالة مخلانى معتكف فى البيت أخلصها وهتزهقوا منى.

ضحكت والدتى وقالت

_ تنورنا يا ابنى عن اذنكم أشوف اللى على النار.

خرجت فجذبنى محمود لأجاوره وأغمض أحدى عيينيه وقال مشاكسًا

_ هتكتفى مين يا ست "آيات"، سمعينى تانى؟ ضحكت بينما أعتدل فى مجلسى وقلت

_ مش كفاية الرسالة حرمانى أشوفك.

_ غصب عنى والله يا حبيبتى أخلص الرسالة وأكون تحت أمرك.

_ مش زعلانة بالعكس نفسى أساعدك.

_ ربنا يخليكِ ليا يا "آيات". انتي بس ادعيلى.

_ ربنا يوفقك. معلش بقا الترابيزة تقيلة عشان كلها أزاز تعالا ساعدنى نقربها عشان نفطر.

وقف محمود وضبطنا وضعيتها سويًا بجوار السرير وجلسنا فقال

_ بجد يا "آيات" شبعان أفطرى انتي بآلهنا والشفا.
أنحنيت على المنضدة، وووضعت كفى تحت وجنتى ومطيت شفتى كالأطفال وقلت
_ وقلت عشان خاطرى.
اتجه بنظره للخارج وقال بصوت منخفض
_ بقولك ايه بلاش دلع خالص. مامتك برة والباب مفتوح خلينا قاعدين باحترامنا وبلاش فضايح من أول زياره كده.
ضحكت بأستمتاع على إرتباكه وأكملت بدلال
_ برضوا كده يا حودة تكسفنى.
أضاق حدقتيه بتوعد ماكر ونهض وأغلق الباب بالمفتاح، فنهضت مسرعة للجهة الأخرى من السرير وقلت من بين ضحكاتى
_ خلاص والله.
_ الأسبوع الفات بعدت نفسى بالعافية، وكل يوم أقول أثبت يا واد بكرة تخلص وتفوقلها وانتي شغالة هزار ودلع فى التليفون لما جننتينى، وبالدلع ده كمان يبقى جبتيه لنفسك. تعالى فورًا قدامى.
_ خلاص مش هدلع تانى.
_ وطى صوتك هتفضحينا.
_ حاضر. خلاص هقعد مؤدبة.
_ طيب تعالى نفطر.
_ من غير غدر.
_ يا حبيبتي مفيش راجل بيغدر بمراته.. بس برضوا ما يمنعش إنك وحشتينى.
****

الضياع الرابع عشر
"وللعشق رأي أخر"

دعينى أدفن أشواقى بمحراب عشقك..

أتمتع بنعمة وجودى فى حضرتك.

. ليصمت الكلام، وتتناغم الأشواق..

وترتفع النبضات، ونحيا بالعشق..

فتحت الباب بهدوء ولملمت خصلاتى على نداء والدتى. ذهبت للمطبخ فقالت

_ أسالى جوزك بيشرب الشاى إيه؟

عدت مرتبكة فذكرنى بصنعى للشاى له فى أواخر أيام عملى. هربت من إيحاءته الماكرة وأحضرت الشاى. جلست أتناول أفطارى متحاشية النظر إليه فجاورنى

_ مش تعزمى.

_ أنت مش محتاج عزومة؟

_ ممكن سندوتش؟

أومأت بالأيجاب، وصنعته، فقال

_ أكلينى مكسل أغسل ايدى.

باغتت ذكراى مع "أدهم" مخيلتى، فقطب جبينى وكأن الماضى يتكرر. أقشعر بدنى بتقزز وأغمضت عينى بقوة بنفور، ونفضت رأسى لأزيل أثر المشهد ونسيت أن محمود زوج، وللزوج كبرياء، وها هو يرى غريمه يقتحم خلوته أمام ناظرية. فأستعر الغضب بين جنباته، ووقف صارخًا فأنتفضت أشلائى

_ خلصتى ذكرياتك مع حبيب القلب ولا لسه مش قادرة تصبري على بعاده للدرجادي؟

أتجه للخارج غاضبًا فتمسكت بذراعه متعلله بأن الأفكار هى من تداهمنى، وبعذرى أضفت على النار حطب فأشتعلت جوانحه بشراسة.

دفعنى للخلف ليتخلص من قبضتى ويخرج ولكن قد توقف الكون حوله على صوت تهشم مصحوب بصرختى.

دار فى مكانه ببطء مذهول فرأنى سابحة بدمائى أرضًا والمنضدة الزجاجية فوق ذراعى. أسرع بأبعاد الزجاج المتناثر فوقى وحملنى من بين الركام. وضعنى على السرير برفق وفحص ذراعى وأنا أتلوى بألم.

دخلت والدتى هاتفة بجزع فنظر لها محمود بصدمة. فنطقت من بين أناتى

_ مخدتش بالى ووقعت بالطربيزة.

نظر نحوى فاغر فاه، فأغمضت جفونى هاربة من خطيئتى. التفت محمود حوله ثم وقف وأمسك بحجابين. لف أحداهما على ذراعى والأخرى على شعرى وساعدنى على النهوض موجهًا حديثه لوالدتى

_ هاخدها المستشفى.

طلبت والدتى أنتظارها لتبدل ملابسها لكنه خشى نزيفى فطلب أن تتبعنا بصحبة والدى. ركبت السيارة بجواره بألم واعتذرت له بوهن فبادر بإعتذار أعمق. طالبته بعجز عدم الرحيل عن حياتى وتعانقت جفونى سابحة فى الظلام بينما ظل يهز جسدى ويردد أسمى لعلى أستفيق.

فلماذا كلما رفرفنا بأحلامنا بعيدا..

عدنا محملين بغبار الذكريات..

****

ستظلي بالقلب مهما زادت ندباتك فيه.. فقد أتيت اليك أسير مستسلمًا.. متمنى بأن تظلى باقية بحياتى.. ويكفينى أن تردى السلام حين القيه..

أستفاق محمود من تيهه على شهقت والدتى عندما رأت دمعة مترقرقة بجفنيه.

حاول طمأنتها هى ووالدى وجلسوا جميعًا ينهشهم القلق بإنتظار خروجى من غرفة العمليات.

أستفقت فى حجرة خاصة وحولى عائلتى وعائلة محمود ماعداه. تقدمت والدتى تبعها الباقين يتحمدون سلامتى علقت عليهم بتمتمات متعبة. بحثت عنه بعينى فعلقت والدته

_ كان هنا يا حبيبتى وطلع بره.

دخل على أخر كلماتها فتلاقت أعيوننا بعتاب. ترقرقت زخمات الماء بمقلقتى فأسرع مقبلا جبهتى معتذرًا. نهض والده قائلاً

_ ما تيجوا يا جماعة نخرج فى الهوا شوية ونسيب العرسان مع بعض.

خرجوا جميعا وجلس محمود بجوارى وقبل كفى وقال

_ حقك عليا، أنا غبى.

_ أنا الغبية عشان وصلتك لكده.

قبل جبهتى بحنان وقال

_ انتي حبيبتى ودنيتى، بس سامحينى مش قادر أتحمل فكرة أن حد قرب منك قبل كده.

شهقت من واقع كلماته فأخفض بصره أرضًا

_ أسف يا "آيات". بس أحساس صعب قوى جويا. مكنتش متخيل انه بيوجع كده. لما قلت على العرض يوم كتب كتابنا جهزت فى خيالى سيناريوهات كتير عشان ما أتصدمش وأكون قد وعدى لكن التفكير حاجة والواقع حاجة تانية خالص. عشان خاطرى حاولى تنسى وما تربطيش المواقف ببعض عشان نقدر نكمل حياتنا. أنهمرت دموعى حزنًا ونكأ جرحه جرحى.

حاولت شرح مدى نفورى من تلك الذكريات وحاجتى له فأكمل مؤكدًا بأن حبى قد وشم على قلبه ولا يمكن إزالته إلا بالموت. كففت دموعى وقلت بأرهاق مشاغبة

_ فهمنى بقى مرة زعلت رفعت ايدك وكنت هتضربنى، ومرة دخلت العمليات. المرة الجاية ايه عشان أكون مستعدة؟

ابتسم بحزن وأشار لجبهتى وقال

_ هكسر دماغك اللى تعبانى دى. عاجب ولا لا؟

سحبت كفه وقبلت براجمه مؤكدة على تقبلى كل ما يصدر منه بشرط بقائه بجانبى. نهض مسرعًا وقبل جبهتى بعمق وقال

_ ربنا يقدرنى وأعوضك.

حضرت ممرضة وأعطتنى بعض الأدوية وأنصرفت بعد أن شكرها محمود. طلب منى النوم لأستريح. أمسكت كفه وأرحتها تحت خدى وطالبته بالمغادرة بعد أن أغفو. رفض رفض قاطع تركى إلا بعد خروجى من المستشفى بعد عدة أيام. أقسمت عليه بالرحيل ليكمل دراسته فقال

_ بتحلفى ليه؟ أنا مش هكون مطمن الا وأنتي قدام عينى.

_ خلص الرسالة وبعدها أطمن براحتك.

تنهد وأبلغنى بأنه سيرحل ويحضر مساءًا. أقسمت عليه مجدداً بعدم العودة، فظهر الضيق على ملامحه وقال

_ "آيات" مش بحب حد يحلف عليا، همشيها المراد بس ما تتكررش ويلا نامى.

ابتسمت وأغمضت جفونى ودعوة الله بعدم حرمانى منه. ظل يمسح على شعرى ويرتل بعض "آيات" الذكر الحكيم فتسرب لقلبى بعض السكينة وغفوت متشبسة بكفه الذى يرقد بسلام تحت خدى.

****

_ "آيات" كلمى جوزك.

أستيقظت على صوت والدتى. تناولت آلهاتف منها، وبصوت ناعس أجبت.

لاحظت قلق محمود فطمأنته بعبارات بسيطة وطالبته بالتركيز بدراسته فقال

_ من وقت مارجعت البيت مش عارف أمسك ورقة واحدة.

_ محمود لما حلفت متجيش كان عشان تذاكر، عشان خاطرى ركز فى رسالتك.

_ والله غصب عنى مش مسامح نفسى على الحصل.

_ صدقنى واثقة أن الحصل ما تقصدوش، بس هزعل لو ما جبتش تقدير عالى بسببى.

تنهد وصمت فأكملت بدلال أعلم تأثيره عليه

_ ذاكر عشان خاطرى يا ابو حنفى.

_ حبيبة قلب ابو حنفى انتي والله. عشانك هحاول المهم مامتك هتبات معاك؟

_ اه متخافش. يلا لا آله الا الله.

_ مُحَمَّد رسول الله.

****

قبل أن تترفل أشعة الشمس فى العلياء أستيقظت على لمسات على شعرى. وجدت محمود يجلس على الكرسى المجاور محتضن كفى. ألقى الصباح بصوت خفيض فرددت بينما والدتى تتقلب على السرير المجاور ومازالت تغط فى ثباتها. فقلت زاجرة

_ ايه اللى نزلك من البيت دلوقت؟

_ ما قدرتش أنام فجيت صليت الفجر فى المسجد تحت وطلعت أشوفك.

ابتسمت لرجائه المبطن وتحمدت سلامته. حاولت النهوض لأزيل أثار النوم من على وجهى. حملنى كطفلة ولم ينزلنى إلا أمام الصنبور. قام بغسل وجهى بنفسه وأمسك المنشفة ليجففه فأمسكت كفه بسعادة وقلت

_ لو اتعودت على الدلع ده هتعبك على فكرة.

_ انتي فعلا تعبتينى، ووحشتينى.

_ يا سلام ما كنت معاك امبارح.

_ برضوا وحشيتى. أنا خلاص ادمنتك ونفسي أخطفك من هنا.

تطايرت فراشات السعادة من حولى، فطرقت بأصبعى على صدره بغنج وقلت

_ حد يخطف مراته يا دكتور.

قطع خلوتنا نداء والدتى. فخرجنا، وقال محمود بإحراج

_ صباح الخير يا طنط معلش مقدرتش أستنى للصبح.

ابتسمت والدتى وقالت بحنان

_ صباح الخير يا ابنى تعبت نفسك ليه أحناعارفين إنك مش فاضى.

تركتنا، ودخلت لتتوضأ فأعتدل محمود وحملنى على السرير وقال

_ عارفة لولا تعبانة كنت قلت لعمى هاخدها معايا واللى يحصل يحصل.

ابتسمت، وتمددت على السرير، فدثرنى وقلت

_ أمشى يا تلميذ خلص مذاكرتك وبعدها أروح معاك.

_ أعمل ايه مش انتي الجاية فى وقت غلط.

خرجت والدتى وقالت

_ خليك يا محمود مع "آيات"، هنزل أصلى تحت.

_ لا خليكى يا طنط براحتك وأنا هخرج بره.

_ لا يا حبيبى خليك مع مراتك وبالمرة أمشى رجليا شوية.

خرجت، ففرك محمود كفيه بحماس مشاغب، فضحكت بشدة وطالبته الجلوس بهدوء. جلس مزمجرًا ووضع كفه تحت خده وأرتكزت نظراته على صفحة وجهى. أخجلنى فقلت

_ خلينا نتكلم جد بقى إيه أخبار الرسالة؟

_ كان نفسى تبقى معايا فى المناقشة؟

_ المهم أنت ركز، وربنا ييسر إن شاء الله.

_ "آيات" إيه رأيك نعمل فرحنا بعد أسبوعين مثلاً؟

_ إزاى يعنى؟

_ قدامى أسبوع وأناقش الرسالة والأسبوع اللى بعدة نعمل فرحنا.

_ حرام عليك يا محمود وقتها يمكن أكون لسه مافكتش الغرز وكمان أنت قلت منزلش أشترى حاجة فى جهازى إلا معاك. أشترى إزاى وأنا كده؟ والف إزاى على الفستان؟ أنا عايز أفرح بحاجتى ويتعملى فرح زى كل البنات.

_ كل اللي بفكر فيه انك تبقى معايا، أنا بتعذب وانتي بعيد عنى.

_ معلش أصبر كمان شوية.

_ عارفة يا "آيات" أنا أعجبت بيكِ من أول يوم شفتك فيه وغصب عنى لقيتنى بفكر فيكِ وبدور على أي فرصة عشان أشوفك وأعرف أخبارك من بعيد وأنتى ما كنتيش حتى واخدة بالك منى.

ويوم ما شفتك فى المكتب قاعدة مكان نجلاء مكنتش مصدق عنيا. والفترة اللى كنتى حزينة فيها وبتعيطى دايمًا كنت مش قادر أتحمل حزنك وبموت عشانك. ياما صليت ودعيت ربنا يفرج كربك ويشفى جرحك اللى مش عارف سببه.

وأول مرة دخلتى مكتبى وانتي مبتسمة حسيت أن الدنيا ضحكتلى وكان نفسى أضمك وأقولك اخيرًا ابتسمتى.

ولما سألتك عن سبب التغير الحصلك وقلتي كل الاقدر أقوله شكرًا، كان نفسى أقولك أنا اللى بشكرك لانك رجعتيلى روحى بالبسمة دى. حبيت خجلك، ومشاغبتك، وعشقت عضتك على شفتك لما ترتبكى.

حسيت أن ربنا بعتلى فرصة عشان أحسسك بوجودى ووعدت نفسى أن مش ممكن هضيع الفرصة دى. مت ألف مرة وانتي خايفة منه، إلا أن تمسكك بيا ده عشان أحميكى أدانى أمل. فاكرة اليوم اللي أغمى عليكى فيه؟ روحى أتسحبت منى ولما ابتديتى تفتحى عنيكى خفت تشوفي عنيا وتفهمى الجوايا وترفضى وجودى جنبك.

بخاف عليكى من كل حاجة. مش عايز حاجة تانى توجعك، ونفسى تكونى فى بيتى عشان أحافظ عليكى من الدنيا كلها. فهمتينى؟

فى الحب يتعلم الأنسان كيف يقدم قلبه قربان..

ويطلب الصفح والغفران من ذنب لم يقترفه..

سال دموعى ولم أستطيع الوقوف أمام ظمأ جسدى للأختباء وسط هذا الكم الهائل من المشاعر ليكمل ما أنتقص عبر أروقت الأيام. نحيت الخجل جانبًا وطالبت ببحة ظهرت على صوتى أن يضمنى. جذبنى فوددت أختراق صدره والأختباء داخل ضلوعه حتى تتشرب أعماقى الأمان.

ابتعدت اجفف دموعى واعدة بالمحاولة لتسريع الأمر على قدر المستطاع. تنهد وهو يعاود الجلوس ويحتوى أصابعى داخل كفه بينما أنظر بفخر لحصنى المنيع من خيبات الزمن.

****

راقبت الشوارع والمحلات بسعادة من سيارة محمود بعد أن تحررت من أسر المشفى والأمها. خرجت للحياة وكأنى غبت عنها سنوات وليس ليومين. أخرجت كفى من نافذة السيارة وأغمضت عينى منتشية بلفحات الهواء الباردة حتى وصلنا بيت والدى.

ترجلت من السيارة بصحبة والدى ووالدتى ومحمود وصعدنا جميعا. دخلت أتنفس عبق منزلى فكم أشتقت إليه ولغرفتى التى قبل أن أخطوا أولى خطواتى فيها أصدر محمود أوامره بالنوم والراحة.

قمت بتبديل ملابسى، وأويت لفراشى وبقيت متيقظة حتى دخل مع ووالدتى الغرفة فأغمضت جفونى بضجر قبل أن يلمحوها. أنسحبت والدتى بهدوء فلحقتنى لمسات محمود على جديلتى، جال بخاطرى أن أشاكسه قليلاً فقلت

_ أتعودت خلاص أى لمسه على شعرى تبقى أكيد منك.

_ صحيتك؟

همست برجاء طفولى

_ مش عارفة أنام.

أرتكز بعينيه على صفحة وجهى وبقى صامتا

ناديته بضيق مصطنع لجذب أنتباهه فتنهد وانفرجت شفتيه ببسمة مفكرة أتبعها باقترابه هامسًا بلؤم

_ إن ضحكت عليك وعرفت أنيمك يبقى ليا مكافأة بعدين؟

_ ماشى بس إزاى؟

جلس بجوارى وجذبنى لصدره

_ هنا هتلاقى دايمًا أمانك وحمايتك.

أسبلت جفونى بخجل أشم رحيق عشقه ولم يفارقنى إلا بعد أطمئنانه على وردته اليانعة. عندما استيقظت عدت لأستنشقت عبيره العالق بوسادتى. أبتسمت بينما تعلقت أفكارى بفارسى المغوار.

أمسكت آلهاتف وأتصلت به وقلبى يملأه الأمل بأن غدًا أفضل ينتظرنا. توالت أتصالاته يذكرنى بمواعيد أدويتى، ويتابع طعامى مع والدتى بعد أن منعت زيارته حتى ينهى مناقشة رسالته.

على طرف بسمتك أصول وأجول..

أعود تائه كمجذوب بلا عنوان..

عاشق مفتون بسيدة النساء..

غارق للنخاع فى مقلتى العسل..

متأرجح دائمًا بين أهداب العيون..

****

الضياع الخامس عشر

"ليالي العاشقين"

يا طفله أشتاق لاحتضانها داخل المقل..

كفاك لهوًا بين الضلوعِ.. قد ران قلبى حائرًا بعبير..

، وهامة روحى وراء طيفك..

فأضحى صباحى يشرق بطلتك..

ولاح المشيب على صبا لياليك..

_ جيتى؟

سألها محمود بعدم تصديق عندما رأنى بصحبة والديا ننتظره أمام مبنى كليته. صافحنا ثم شملنى بنظرة متفحصة لذراعى. أبتسمت لأطمئنه فلامنى لعدم أخباره بحضورى.

_ كنت هتقول لا، فكان لازم أخليك قدام الأمر الواقع.

رفع حاجبه متوعدًا بصمت، فأضاف والدى ضاحكًا

_ كانت منبهه علينا محدش يجيبلك سيرة عشان تكون مفاجأة.

فرد محمود بعشق

_ فعلاً أحلى مفاجأة.

أخفضت وجهى خجلا من نظراته العلنية بينما ربتت والدتى على ذراعه

_ سيبك من "آيات" دلوقت، وركز فى المناقشة يا ابنى.

_ ايوة شد حيلك يا دكتور.

قآلها والدى مؤيدًا فنظر محمود فى ساعته واعتذر ليغادر ويبحث عن الأساتذة المناقشين وأشار على القاعة لنستريح فيها. أنتظرنا بالقاعة حتى حضر والديه. جمعنا سلام حار تبعه السؤال عن الأحوال. سعدت بأندماج العائلتين وأنتظرت حتى حضر محمود ومعه الأطباء المناقشين. أشار بأن أدعو له فأشرت له مذكرة بالموافقة ووعده لى.

أخذ شهيق طويل وعينيه لمعت بالتحدى وأعتلى المنصة. لم أتوقع أن تستغرق المناقشة كل هذا الوقت حتى قفز محمود مهللاً عندما أقر المناقش بحصوله على الماجستير بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف. صافح المناقشين، وأقترب من والديه، وأحتضنهم، وقبل كفيهم وجبهتهم ثم أسرع وحملنى ودار بى صائحاً

_ مرتبة الشرف يا "آيات" مرتبة الشرف.

_ الحمد لله.

قلتها بدموع مترقرقة ببهجته فأنزلنى بسعادة. جذبه أصدقائه ليشاركوه فرحته وحملوه عاليًا هاتفين بأسمه. كنت أراقب فرحة الحضور حتى وقعت أنظارى على أسوا كوابيسى "أدهم" يقف عند باب القاعة ينظر الينا بجمود فأغتمت أبتسامتى وأرتجف قلبى. إنشغل والدى مع والد محمود وأصدقائه، ووالدتى جلست ضاحكة مع والدة محمود.

أبتلعت ريقى مرتجفة أود الأختباء داخل حصن محمود. كمسيرة أسرعت إلي محمود وأمسكت بطرف جاكت بدلته كطفلة تحتمى بوالدها. شعر بلمستى فأعتدل باسمًا. حاولت أن أبادله الأبتسامة فلم أستطع فأخفضت نظرى بإنكسار.

ضيق حدقتيه بحيرة ثم تناقلت نظراته بين الوجوه حتى أصطدم ب"أدهم". عادت تلمع بشراسة قابلته بنظرة مستغيثة زادت من حدته فتأرجحت خوفا بينهما.
ناشدت حمايته بضياع فطوقنى بذراعه وقربنى منه قائلاً لأصدقائه
_ أعرفكم "آيات" مراتى.
زلزلنى فخرًا لما كسانى برداء حمايته وتمالكت مدامعى قسرًا فرحة بطوق النجاة. قام الجميع بتحيتى والقاء عبارات التهانى لنجاحه وزواجنا. أستأذنهم محمود وتوجهنا لوالدى بصمت
_ بعد اذنك ياعمى هتغدى النهاردة برة مع "آيات".
عارضه والدى متخوفًا من تأثير أشعة الشمس على جرحى فطمانه. صمت والدى برهه ثم إبتسم موافقًا. شكره محمود وخرجنا متوجهين لسيارته بهدوء لم يتخلله الا بعض التهانى والتبريكات من الأخرين. أنطلق بسيارته بصمت قطعه زوبعة طرقه العنيف على المقود متسائلاً عن سر حضور "أدهم". توجست خيفة وقلت
_ بتشك فيا؟
رفع حاجبه وبصرامة نفى، فطلبت غلق موضوع النقاش. صف سيارة جانبا وجذب ذراعى بقسوة وقال
_ حضرتك ناوية تحددي المواضيع اللى أتكلم فيها؟
أبتعدت بوجهى مذعورة وقلت
_ قصدى بلاش تديله الفرصة يضيع الفرحة اللى تعبت عشانها كتير.
تسارعت أنفاسه صعودًا وهبوطًا لبرهة ثم ابتعد وأعاد تشغيل السيارة. سألت دمعة حزينة على خدى مسحتها فى الخباء ونظرت للأمام بجمود حتى وصلنا المطعم.

ساعدنى بفك حزام الأمان خاصتى وعانقت أنامله أناملى بتملك حتى أستقر بنا المقام داخل كبينة بقسم مغلق للعائلات.

جلست مطرقة الرأس بينما تحدث مع النادل قليلاً وأغلق الباب. جاورنى صامتًا ثم رفع وجهى باطراف أنامله، فلمح دموع حبيسة مقلتى فقال بعصبية

_ طيب أعمل ايه؟ الراجل المستفز ده بيفقدنى أعصابى بتصرفاته.

أشحت وجهى والأفكار تتضارب بعقلى. هل يمكننا

الأستمرار على هذا المنوال فى كل مرة نتذكر "أدهم"

أو نراه؟ قطع شرودى قائلاً كتغيير للموضوع

_ مش واخدة بالك إنك ما باركتيش ليا.

_ مبروك.

قلتها بضيق فتصنع الصدمة وقال

_ كده بس؟

غمز بأحدى عينه ففهمت ما يرمى إليه. أشحت وجهى بخجل فأصر أن يبارك لنفسه بطريقته. مر الوقت سريعًا حتي نظرت لساعة يدى وهتفت غاضبة لتأخرنا, فرد منشرحًا بتواجدنا سويًا فى يوم نجاحه ثم باغتنى قائلاً

_ وافقى نتجوز أخر الأسبوع.

_ طيب وهدومى والفستان؟

مط شفته بلامبالاة وقال

_ لو على الهدوم اى حاجة تمشى، والفستان أعرف محل شيك تعالى نروح دلوقت وأختارى.

_ محمود الفستان بيكون تقيل مش هعرف البسه ودراعى كده. فابتسم بمكر ومشط شعره بأصابعه

_ وأنا رحت فين؟ دا أنا ناوى أساعدك تجربى كل فساتين المحل.

_ يا سلام، لا طبعًا.

_ صدقينى هبقى مؤدب خالص.

ابتسمت بسخرية فهمها، فوضع ساق فوق الاخرى وقال

_ مضطرة تقبلى. قلدته ووضعت ساق فوق الأخرى، وقلت بترفع

_ ابدًا مش مضطرة قدامى شهرين زى ما أتفقت مع بابا.

_ طيب والله لننزل نشترى الفستان النهاردة، قال شهرين قال شكلك عايزة تموتينى ناقص عمر.

_ دلوقت بتحلف ليه؟

قلتها بضيق فاحتضن كفى وقال برجاء

_ "آيات" فعلا محتاجك جمبى، ويا ستى هساعدك بالطريقة اللي تعجبك.

فقلت بتفكير

_ خلاص تساعدنى فى الأختيار، وأكيد فى عاملات هناك يساعدونى فى اللبس.

_ يا سلام تقبلى بالغرب وترفضى جوزك؟

اومأت بالإيجاب فزفر بضيق وتبرم متوعدًا. ابتسمت لتبرمه فأقترب قائلاً

_ هو فاضل كام ونكمل الف مبروك؟

رفعت أصبعى بتهديد مشاغب ليرتدع.

لَمَّا رآني فِي هواهُ متيَّماً..

عرفَ الحبيبُ مقامهُ فتدلَّلا..

فلكَ الدّلالُ وأنت بدرٌ كامِلٌ..

ويحقُّ للمحبوبِ أن يتدلّلا..

(ابن سهل الاندلسي)

****

ضربني محمود على رأسى بخفة، فتعالت ضحكاتى وسرت أمامه بخيلاء. أثناء قيادته لاحظت تمتماته المزمجرة، فقلت متصنعة عدم الفهم

_ مالك؟ فى حد زعلك؟

_ عارفة كنت ناوى على أفلام ومسلسلات بس ربنا يسامح اللى بوظ الأخراج.

ضحكت حتى أدمعت عيناى، فقال

_ أضحكى. بكرة تجرى ورايا ولا هعبرك.

وصلنا وأخترنا فستان أبيض بفصوص فضية هادئة.

وقبل أن أدخل غرفة التبديل أستوقفنى محمود، ونظر في جميع الزوايا ثم قال

_ كله تمام يا باشا أتفضلى.

_ كنت بتدور على ايه؟

_ بطمن مفيش مرأة عاكسة، ولا كاميرا مراقبة، ولا حاجة كده أو كده.

قآلها بتلميح، فأبتسمت بفخر، وقلت

_ أنا بحمد ربنا أنه رزقنى بيك.

دخلت غرفة التبديل، فأدخل رأسه وقال

_ عارفة إنى بعشقك. فأجبت بينما أستمد الأمل من عينيه

_ عارفة ومتاكدة.

أبعدته برقة، وأغلقت الباب والسعادة تحيطنى من جميع الأتجهات. في المساء عدنا لبيت والدى وقد أعدت والدتى وليمة كبيرة على شرف نجاح محمود وحضرها ايضًا أفراد أسرته وبعد العشاء أتفق محمود مع والدى على تقديم الفرح ليكون بعد اسبوعين.

****

أصطحبنى محمود للمستشفى لفك غرز ذراعى بعد أسبوع. أنقبض قلبى وتمسكت بكفه كطفلة وقلت بخوف

_ ربنا يكرمك ادخل معايا.

ابتسم مربتًا على كفى بحنان وقال

_ ومين قال إن هسيبك لوحدك.

جلست أمام الطبيب، ودفنت وجهى بكتف محمود وتمسكت بملابسه بقوة.

احاطنى بذراعه مربتًا وعندما أنتهيت كانت الصدمة من منظر التشوه الذى لحق بذراعى. خرجنا من المشفى وذهبنا لنفس المطعم السابق وطلب محمود الغداء ثم امسك كفى، ولثمه وقال

_ ممكن أعرف كل العياط ده ليه؟

خبأت وجهى بين كفى وعلا نشيجى، فأحتضننى بمواساه وقال

_ لو فاكرة إن ده ممكن يقلل من حبى ليكِ تبقى غلطانه.. "آيات" أنا راضى تمامًا بكل حاجة فيكى ولو تحبى بعد جوازنا مكن تعملى عملية تجميلية.

تشبست برأيه والححت بأصرار على إجرائها قبل الزواج فجلس على أحد ركبتيه وأقسم بأنه لن يمنعنى لو طلبتها بعد الزواج ولكن الأن هو يستعجل الأيام لأكون ببيته ليهتم بكل شؤنى بنفسه وفى النهاية وافقت على الإنتظار بمضض.

حضر الطعام واصر محمود أن يشربنى العصير ويطعمنى بعض اللُقيمات بنفسه ولم يتخلى عن حنانه الذى أسكن كثيراً من هواجس أفكارى. بعد الأنتهاء من الغداء قال

_ "آيات" عايزك ما تقعديش مع نفسك وتفكرى فى

الموضوعِ تانى خليكِ واثقة فى كلامى وحبى ليكِ.

وافقته، فطلب مشاركته فى رحلة تسويقية لشراء بعض المتطلبات لشقتنا وبسط كفه بحماس فتمسكت به بحماس مماثل وخرجنا متشابكين الكفوف فى عناق لذيذ بدد حزن قلبى السابق.

****

الضياع السادس عشر
"الزفاف"

زاد أنشغالى مع ووالدتى لشراء جهازى وشاركتنا الرحلة والدة محمود. كانت السعادة بادية على ملامحها بالرغم من الإجهاد. ففرحت لفرحتها وحاولت ألا أعترض على اختيارها وعملت على تقريب وجهات النظر بينا وحتى والدتى أخذت صفها.

أهدتنى بعض المشتروات كهدية زواجى. بالرغم من السعادة التى كنت أحلق بها نهارًا إلا أن الكوابيس وشواهد القبور أنهكت أعصابى ليلاً، حتى الأموات كنت أراهم من خلف الضباب يخرجون من قبورهم ويجذبونى جذبًا لأعود معهم ومهما حاولت الصراخ لم يتعدى صوتى حنجرتى.

أنتهى أسرع أسبوع فى حياتى بجمال لحظاته بغض النظر عن أحزانى الليلية. ذهب أهلى لفرش شقتى صباحًا ومكثت فى المنزل بصحبة بعض صديقاتى. كان فى استقبآلهم محمود ووالده ووالدته واخوه حمزة.

حلقت بين السحاب باتصالات محمود المتكررة لينقل لى الأحداث عن طريق البث المباشر. سعدت بمشاكسته أثناء أخباره بأماكن الأشياء بعد فرشها

_ "طقم الكاسات الذهبى وعليه وردات حمرة فى النيش أحفظى المكان".

_ "الأبجورة على الكومدينوا أوعى تخبطيها فتتكسر وهات غيرها يا محمود".

_ "الطقم الصينى شكله هيوقع النيش يا "آيات" كل دى أطباق هناكل فيها".

_ "بيقولوا الأطباق الزجاج ينفع تسخنيى الأكل فيها، دول مجانين يا روحى ماتسمعيش ليهم بدل ما تولعى فى الشقة".
_ ""آيات" هدومك ملت الدولاب هرمى شوية فى الشارع بعد ما يمشوا أمال هدومى أوديها فين إن شاء الله".
بالأضافة لبعض المناوشات من حمزة وضحكاتهم التى أضافة لسعادتى سعادة. خصنى محمود ببعض الأتصالات المنفردة ليسمعنى بعض كلمات الغزل والتعليقات التى أخجلتنى فأغلقت آلهاتف فى وجهه نهائيًا.

****

حضر محمود مساءًا مع ووالدته وحمزة لحضور الحنة وأخجلتنى نظراته الصريحة أمام الملأ. حاولت الأختباء مع بعض الفتيات فى غرفتى ولكن تفاجأت بدخوله بصحبة والدته. سلمت علي حماتى قبل رحيلها وقبلتنى ودعت لى بالتوفيق. أقترب منى محمود وأنحنى قليلاً وهمس بأذنى مغتاظًا
_ يعنى فاكرة كده مش هعرف أشوفك؟
كلها بكرة ويبقا لينا بيت يلمنا ونتحاسب. ضحكت بشده فأثرت غمزات المحيطين وجذبته والدته ضاحكة
_ يلا أتأخرنا ومن بكرة هتشبع كلام.
قبل النوم وجدت رسالة على هاتفى من محمود وكانت تنص على: يوصي عبد الله بن جعفر ابنته فيقول (إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وإياك بكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء.)... ويوصي أبو الدرداء امرأته فيقول(إذا رأيتني غضبت فراضني وإذا رأيتك غضبتي رضيتك،وإلا لم نصطحب.)

قمت بالأتصال به فرد بهمس

_ لحقت وحشتك؟

فقلت بجدية مصطنعة

_ فهمنى يا دكتور هى الرسايل دى بإعتبار أنى بنتك ولا مراتك عشان أحدد مستقبلى معاك؟

_ انتي بنتى، ومراتى، وحبيبتى، ودنيتى الحلوة اللى تمنيتها والحمد لله ربنا كرمنى بيها. أعمل ايه خفت ينسوا يوصوكى عليا فقلت أوصيكى على نفسى.

لم أستطيع تصنع الجدية أكتر وأنفجرت ضاحكة

_ عارف يا محمود بجد، أنت نعمة كبيرة ربنا كرمنى بيها.

_ عشان بس تعرفى قيمتى.

_ عارفة والله.

_ المهم بقا فى حاجة ناقصة أو محتاجة حاجة أجيبهالك الصبح عشان هنسافر بعد الفرح على طول إن شاء الله.

_ لا كله تمام جهزت كل حاجة.

_ تمام وبرضوا لو احتجتى حاجة كلمينى.

_ ربنا يخليك. يلا بقا عايزة أنام ورايا حاجات كتير بكرة تصبح على خير.

_ وانتي من اهل الخير يا حبيبتى.

أغلقت الهاتف وأنا أحمد الله على نعمته، وأصابنى الأرق رغم التعب فلم أستطع النوم حتى اذان الفجر. أتصلت بمحمود، وقمنا للصلاة ثم عدت للسريرى أناشد النوم الذى غادرنى طول الليل. أستيقظت على دغدغة ومحمود يهتف بمرح

_ يلا أصحى يا كسلانة. عايزة نعمل الفرح من غير عروسة؟

أنفرجت جفوفنى قليلا لأراه والدتى وأصدقائى يملأون الغرفة. فأغلقتهم بنعاس ووضعت وسادتى فوق وجهى

_ مش لسه سيباك فى التليفون؟ روح كمل نوم.

ضحك جميع المتطفلين الموجودين فى غرفتي بتلك اللحظة، فقالت والدتى

_ أهى على كده يا ابنى مش عارفين نصحيها.

رد محمود بخبث

_ يا جماعه دى عروسة ومن حقها تدلع. أطلعوا أنتم بس وهصحيها بطريقتى.

_ خلاص صحيت.

قلتها بحنق ونهضت بضجر فتعالت الضحكات حولى. أوصلنى محمود وصديقاتى لمركز التجميل وأنشغلنا جميعا حتى حل المساء. كنت سعيدة بسعادة محمود وفرحة المحيطين بنا.

نظرت لمحمود بحنان وهو يود أحتضان الكون بأسره من فرط سعادته، حمدت الله على نعمته، وذرفت دمعة شكراً للمولى. دعوة الله لنا كثيرًا بأن يتم نعمته علينا. ودعنا الجميع وسلكنا طريق السفر بسيارته. ضحكنا، وتحدثنا عن المواقف التى حدثت طيلة اليوم والأيام السابقة حتى غفوت قبل وصولنا بنصف ساعة. أيقظنى محمود عند وصولنا فتشبثت بذراعه وأكملنا الطريق لغرفتنا.

****

مرت الأيام بسعادة لم أذقها من قبل. لم أتوقع أن محمود يحتوينى بهذا الشكل بعد أن فقدت الأمل فى العثور على مثل هذا الأمان. أشعرنى بأنى تحفته النادرة لم يأتى الزمان بمثلها. غمرنى بحنانه، أجتاحتنى همساته.

جعلنى أستقبل قيثارة العصافير صباحًا بأمل يحيه بحبه وتفهمه وأغفو ليلاً ببسمة يتفنن هو برسمها. معزوفة عشقه وقعت على قلبى كندفات الثلج فى يوم يقظ الحرارة فأمتصت لهب السعير بسكناته.

ومع هذا الحب الجارف حاولت نسيان الماضى والتمتع بليله المنفرد وقد أسدل ستائره لكن لم أستطع منع أعتصار قلبى كلما أقترب محمود ينشد أشواقه، ونفور أنفاسى من بين ضلوعى بضيق بالرغم من محاولتى لتجاهل كل ما أشعر به من أختناق بدون أسباب رغبة فى أبقاء منبر قمره ساطع بدون خوف وتسبح نجومه فى الفضاء الشاسع بدون ترقب لخطط وأندفاعات لكابوس كنت أظن خاطئة أنها أنتهى.

تشبثت بأمل رحيل ظلام روحى الدامس مصطحبًا ليلى المنهك لتعود شمس الأصيل لتشرق بصباح الفرح لعمرى. سلمت لمحمود دفت حياتى الجديدة ليقودها كيفما يشاء. قضيت أيامى أنهل من عبق كلماته الرقيقة وأرتشف من نبع حبه حتى أرتويت. انتهت أجازته ولم ننتبه للوقت، ولا للزمان. كنت أسيرة لدنيا ليس بها الا محمود وحب محمود وغزله..

****

عدنا من رحلتنا التى كانت كحلم جميل. ولجنا الى بيت أبى بشكل مفأجئ لنرى فرحتهم بأعيننا. ونهلت من أحضانهم بشوق وتسامرنا حول رحلتنا وأنصرفنا متوجهين لعائلة محمود. قوبلنا بالتهانى والتبريكات وجلسنا معهم بعض الوقت بينما صعد حمزة بحقائبنا لشقتنا فى الأعلى.

لم تفوتنى نظرة الشوق التى تسكن مقلتى والدته، والدمعة التى تحارب سقوطها. فجلست بجوارها أربت

على كفها وقررت أن لا أكون عائق بينهما ابدًا.
بعد قليل حضر حمزة وشاركنا جلستنا آلهادئة فانقلبت لصخب. صعدنا لشقتنا فأنحنى محمود واشار بكفه لاتقدمه فدخلت بخيلاء كأميرة متوجة وما لبثت حتى خرجت أصرخ بفزع من أصوات مفرقعات لا أعلم مصدرها.
هدأت الأصوات ولم يتبقى إلا بقايا دخان متصاعد. نظرت بترقب من خلف محمود وسمعت هتاف حمزة الذى صعد بعض درجات السلم
_ بالشفا يا عريس، دى تحيه صغيرة من أخوك الصغير. تمسكت بمحمود الذى كان يود الأنقضاض على حمزة الذى هرب فورًا بعد ما تأكدت أن ما حدث ليس إلا مقلب من حمزة. دخلت شقتى بحذر أبحث عن مقالب جديدة وعندما أطمئن قلبى تاملتها غير مصدقة بأنى أقف بين أركان مملكتى الخاصة.
عاهدت نفسى أن تسكن السعادة بين جنبات هذه
الأركان ولا تغادرها ابدًا. أردت تذوق طعم أخر للسعادة بينما أقف خلف محمود فى جنح الليل أصلى القيام.
تمنيت لو أملك القدرة على أكتمال هذه النعمة لكن ضيق أنفاسى وأنقباض قلبى والدوار الذى ينتابنى وتشتتى فى كل عدد الركعات وسؤالى ماذا قرأت أو لم أقرأ عاد ليقتص من خشوعى فيها فتخوننى قدمى وتجبرنى على السقوط أرضًا باكية فأمتنعت عن الصلاة خلفه بحجج كثيرة أغلبها واهية وأوهمته إنى أصلى بمفردى.
عاد محمود لعمله وبدأت بالتفكير فى التقرب من أسرته والبقاء مع والدته بعد رحليه وخاصة من بعد ما بدأت أهاب جلوسى بمفردى فى الشقة وما ينتابنى من ثقل وتجمد بأطرافى كلما مررت أمام الحمام أو أقتربت منه فأظل متيبسة بدون حركة

لوقت لا أستطيع تحديده ولا حتى تحديد ماذا حدث به، حتى ترمش جفونى فجأة فأستفيق فأجد نفسي مازلت واقفة
مكانى.

مع تكرار الأمر حاولت الخروج منه بالأستعاذة من الشيطان الرجيم سرًا ثم تكررها بداخلى مرارًا بصعوبة شديدة حتى يخرج صوتى من حنجرتى ويرتفع ويرتفع حتى أتحرر من القيود غير المرئية وأستطيع التحرك والخروج من هذه الحالة ثم المكان.

خشيت أن أخبر محمود بكل ما يحدث معى حتى لا يظن أنى مازلت متعلقة بحب يوناس فقررت مغادرة الشقة معه صباحًا والبقاء مع والدته حتى يعود.

****

مع الأيام راق لى هدوء عائلة محمود ورقى طبائعهم، وحرصهم على خصوصية حياتى مع محمود فزرعوا حبهم بقلبى، وأحتوونى كأبنه لهم فكرت بالتقرب منهم أكثر وقلت

_ ايه رايك يا محمود نجتمع مع بيت أهلك وناكل كل
يوم سوا؟

أستدار محمود سعيدًا وقال

_ وايه خلاكِ قلتى كده؟

– بصراحة لمحت كتير مامتك بتبصلك بحنين وكأنك مسافر، مش كل يوم بتعدى عليها وأنت راجع من الشغل، ولا بتنزل بالليل تقعد معاهم فصعبت عليا وفكرت بما أننا متفاهمين مع بعض إيه يمنع أننا نقرب أكتر وده يمكن يفرحها.

فزادت ابتسامته وقبل جبهتى قائلا

_ كان نفسى فى كده فعلا بس خفت ترفضى.

_ طيب يلا بسرعة قوم أنزل خد رأيهم.

_ طيب إلبسى حجابك وتعالى ننزل سوا.

_ لا معلش أنزل لوحدك عشان مايتكسفوش منى.

_ ليه دول هيفرحوا؟

فدفعته برفق لباب الشقة

_ معلش كده أحسن.

وافق ونزل بمفرده وبعد نصف ساعة عاد وجلس بجوارى ليخبرنى عن سعادتهم عندما علموا بأنها رغبتى ودعت لى والدته بالسعادة والذرية الصالحة. اقترابت بشدة من والدته فنهلت من خبرتها فى الحياة ونصائحها باللمطبخ وجذبتنى برقة حديثها فأصبحت أقضى معها أغلب الوقت.

تشاركنا ترتيبات الشقتين وأعداد الطعام ومشاهدت التلفاز والأقاصيص عن محمود والعائلة فكان الوقت يمر فى غيابه بدون ملل، وكنت أنتظر بشغف أحاديث والد محمود اليومية عن أحوال البلد وتحليلاته للأحداث الجارية بحكمته وسعة أفقه وبالرغم من مشاغبة حمزة الدائمة ومقالبه فى الجميع إلا أنه كان لا يقل أحتراما عن محمود ووالديه.

أكتفيت بعائلة محمود متهربه من تواجدى معه

بمفردنا وما يصيبنى من غم بوجوده بالرغم من تعامله بالحسنى معى ولم أستطع منع أفتعال الشجار معه حتى ولو بدون أسباب.

فى أحد مرات الغداء بشقة والديه، شعرت والدته بتوعك فطلبت منها الذهاب لغرفتها لتستريح ودخلت أنظف المطبخ بمفردى فترجل محمود قائلا

_ تحبى أساعدك؟

_ لا شكرًا.

_ خلاص هعمل الشاى.

أقترب من الموقد ووضع الأبريق على الموقد، ووقف محدق بى بصمت فقلت

_ عايز تقول حاجة؟

أشار بالنفى، فأكملت التنظيف حتى طلبت منه الأنتباه للشاى. أغلق الموقد وقبل أن يسكبه قفز صارخًا ممسك بكفه. أقتربت منه بجزع

_ أتلسعت طيب وريني. رفض وظل ممسك بكفه المخبأ داخل كفه الأخر بشدة. عضت على شفتى بحزن، ولولا سحابة الدموع التى تجمعت فى مقلتي كنت رأيت الأبتسامة الصغيرة التى تسللت على ثغره. فقلت بحنان

_ معلش تعالا نشوف أى مرهم تدهنها.

ابتسم عندما سقطت دمعة على خدى فمسحها بكفه وقال

_ خلاص متعيطيش كنت بهزر.

نظرت له غير مصدقة فقال مبررًا

_ أعمل ايه مش مهتميه بيا خالص. يا مع ماما فى المطبخ، يا مع بابا فى الحورات اللي مش بتخلص، يا بتناكفى فى الواد الغتت حمزة طيب وابو حنفى ملوش نصيب غير فى الخناقات بس؟

وبدأ فى الأقتراب فقاطعه حمزة قائلاً

_ وبما أنى غتت تقدر تكمل الفيلم العربى ده فوق أخاف على نفسى من الفتنة.

ضغط محمود على أسنانه بغيظ

_ أنت ايه اللى جابك مش كنت بتذاكر؟

فقال حمزة بصوت مرتفع وهو يضرب بكفه على الحائط

_ جاى أشوف اللي بيحصل فى البيت الشريف، العفيف، ال....

وضع محمود كفه على فمه وقال

_ بس يا فضيحة طالعين.

وجذبنى للخارج فابتعدت بخجل

_ محمود لسه مخلصتش.

نظر لى شرزًا ثم التفت لحمزة

_ يكمل بقى هادم اللذات.

أكمل طريقه متمسكا بكفى حتى دخلنا شقتنا. نزعت حجابى بحده وصرخت فيه

_ انت هتفضل كده على طول تكسفنى قدام أهلك بحركاتك دى؟

نفذ سهم كلماتى لصميم قلبه فإغتاله حتي تشققت القشرة ضعيفة البنيان التى تستره. وقال

_ بكسفك؟ عارفة ليه بتحسى بكده؟ عشان مش بتحبينى، عشان أنا بس اللى بحبك، واللى بتعذب بالحب ده، عشان قلبى مختوم بأسمك لكن قلبك إنتي بعد كل ده لسه فاضى.

لامس وجعه شغاف قلبى، فدمعت عيونى، وأسرعت لأرفض تصريحه. فضغط بأصابعه على شفتاى بقوة وقال بغضب

_ هقتلك يا "آيات" لو كدبتى.. إلا دي يا آيات إلا دي.

تركنى ودخل مكتبه وأوصد الباب بعنف. آلقى نفسه

على الأريكة، ومسد شعره بشدة تكاد تكون مؤلمة ولكنها لم تؤلمة كما آلمه قلبه. يؤلمه عدم القدرة على الأبتعاد ولو قليلاً قليلا فقط.. فربما هذه الأنفاس القابعة خلف تجويف فارغ تهرب خلفه أشتياقا..

لكن..

أفكاره لم تغادر ضلوعه حتى تعود لتسكنه. ربما لو أصبح ساحر لأخمد لهيب مشاعر لكلمة طال أنتظارها. جلست أبكيه، أشفق عليه، ولكن ماذا أفعل؟ قلبى فارغ دائمًا، ومفتاحه ضاع فى بئر مظلم.

****

خرج محمود من المكتب وتوضأ وقبل أن يقيم الصلاة أقسمت عليه أن يسامحنى. زفر بقوة وأشاح وجهه وبعد لحظات من الصمت طلب أن أتوضا لنصلى سويا حتى يؤلف الله بين قلوبنا.

انتفضت مبتعدة نادمة على أقترابى منه فى تلك اللحظة لكن لم أستطيع الأعتراض. توضأت كيفما أتفق بعد أن تأكدت أنى نسيت ترتيب الوضوء الصحيح ولم أعرف كيف نسيته ولا حتى متى.

وقفت خلفه بتشتت وبأنفاس بدأت فى الإنقباض مع بداية قرائته فخارت قوايا وسقطت أرضًا أرتجف وأنتحب. قطع محمود صلاته وأعتدل بقلق. طوقنى بحنان سائلاً عما أصابنى فأعترفت منهارة عن عدم قدرتى لسماع قراءته للقرأن ولا حتى الوقوف للصلاة.

بدأ معى حديث مطول واباح برغبته منذ زواجنا فى السؤال عن صلاتي، والعديد من الاشياء الاخرى وأفصح بأنه كان متوقع هذا منذ أن قصصت عليه حكايتى مع "يوناس" يوم كتب كتابنا وتجنبى الحديث عنه بعد ذلك.

طلب منى أن أصدقه القول وأحكى ماذا أشعر أو أرى منذ البداية. أعترفت بما يعتمل صدرى من ضيق وما يحدث معى من أشياء غريبة كلما نسيت الأذكار حتى وصلت لمرحلتى المتاخرة اليوم من نسيان لأركان الوضوء والصلاة وعدم القدرة على سماع أو مساس القرآن وكيف أصبحت أفتعل المشاكل معه بدون إرادة منى لعدم تحملى قربه.

أخبرته عن الألم الذى يصيب جسدي احيانًا حتى لو رأيته بأحلامى. حكيت له بعض من تلك أحلامى التى تنتهى ككابوس يجعلنى أخشى وجوده بقربى عند الأستيقاظ وأشرت على الستائر التى تتموج ليلاً بخيالات أشياء من الدخان تحذرني لو سمحت له بالإقتراب وخلفها تلمع ومضات أعين شرسة دون وجوه .

جاوبت على كل أسئلته ولم أخبئ شئ حتى أنهكت بشدة فساعدنى على الأسترخاء والنوم، وبعد أن غفوت قام بتشغيل سورة البقرة. فى الصباح تناقشنا طويلاً وأقنعنى بأن الحل فى العودة لكتاب الله بيقين تام والتحصن بالأذكار وسيداوم هو بقراءة الرقية الشرعية على حتى أستطيع التماسك وقرائتها

بمفردى.

كما قام بكتابة أذكار الخروج والدخول من المنزل ووضعها خلف باب الشقة، وكتب دعاء الدخول والخروج من الخلاء وعلقها على الحائط المقابل للحمام ووضع أذكار النوم والإستيقاظ بغرفة النوم، وأتفقنا أن نقرأ معًا كل يوم أذكار الصباح والمساء حتى يتأكد من عدم نسيانى لها.

طلب منى محمود عدم اليأس والأستسلام والثقة بكلام الله وقدرته وأنى لا أحتاج سوى الثقة بالنفس والمواظبة على الأذكار والتمسك بالقرآن سماعًا وقراءة. ساندنى

كثيرًا وواسانى لما يصيبنى من الألام وأختناق وضيق عند قرائته لآيات الله فى البداية حتى أصبح صوت المذياع لا ينقطع من بيتى بتلاوة القرأن الكريم.

هدأت كثيرًا عن ذى قبل وتابعت مع محمود كل ما يخص ديننا وأحكامه حتى أتذكر ما حكم عليه بالنسيان وسط دوامتى والامى. حتى علاقتنا باتت أفضل من السابق وبدأت الراحة تعود وغمرنى فى وجوده.

****

الضياع السابع عشر
والأخير
"نهاية أم بداية"

ناسية أو متناسية كنت، لكن الناس تبحث دائمًا فى جعبت الأخرين حتى يقبضوا على نقطة ضعفنا فيضرموا النيران ويحركونا على جمرها بدون هواده.

انشغل الجميع بعدم ظهور بشائر حملى بعد مرور عدة أشهر على زواجى. كنت لا أعير أهتمامًا للامر حتى صدمتنى أحدى جارات والدته وهى تخبرها بأنها طلبت من أقاربها فى الأرياف أن يحضروا لى ثعبان ميت لأخطوا فوقه.

رفضت فكرتها ولكن عقلى أنشغل بتاخر حملى. طلبت من محمود أجراء الفحوصات ولكنه أبى فلم أكترث للأمر كثيرًا وانشغلت بعزومة كبيرة تعدها والدته على شرف عودة ابنة أختها وزوجها من الخارج.

_ محمود هى مراتك حامل فى الشهر الكام؟

قالتها خالة محمود، ونحن ملتفين حول الوليمة المعدة. طوق محمود كتفى بسعادة وقال

_ حامل ايه يا خالتى لسه ما شبعتش منها.

ضربت خالته بكفها على صدرها بأستهجان وقالت

_ لسه ايه؟ دا أنتم داخلين على سنة يا ابنى طيب أكشفلها بدل ما تطلع بور وتضيع شبابك معاها.

ثم مصمصت شفتيها ونظرت نحوى بحنق وقالت

ـ بنتى حملت من الشهر الأول بتوأم وانتي مش قادرة تجبيله حتت عيل، بلا وكسة.
ـ يا خالتى....
قطعت أسترسآلهم، والغصة تملأ فؤادى، وصعدت لشقتى واذنى تستقبل باقى كلماتها

ـ مش كنت أتجوزت "دلال" بنتى بدل ما وقعت فى أرض غريبة وكمان بور تتبهدل معاها.

أنفجرت فى البكاء، وأستجمعت كلام الأقارب والجيران عن تاخر حملى واخيرًا خالته التى أصابتنى فى مقتل. أنزويت على نفسى هربًا من الجميع حتى وافق محمود على أصطحابى للطبية. تخوفت بشدة من وجود مانع، ووساوس الشيطان لم يفارقنى طوال الطريق.

شعرت أنى سأودع محمود وحياتى معه قريبًا حتى وصلنا؟ كان يسبقنا كشفين فجلست متشبسه بكف محمود بخوف. عندما دخلنا لم يسعفنى لسانى لشرح الأمر فتركت لمحمود هذه المهمة. طلبت الطبيبة أجراء بعض التحاليل فى المعمل القابع فى الشقة المقابلة لعيادتها. أجريتها وجلست شاحبة منتظرة قرار النهاية.

أخذ محمود يحدثنى ليشغلنى عن التفكير فاجبته بأقتضاب حتى خرجت امرأة فى عقدها الثالث وقالت بهدوء وهى تفحص نتيجه التحليل

ـ إنتى عايزة أولاد؟

سؤآلها كان فيصل النهاية، نظرت لمحمود بحزن. لو كان هناك حمل لأخبرتنا، ولكن سؤالها ينبأ بكارثة. ظهر بمخيلتى صورة خالته، وابنتها العروس المنتظرة، فأعتصر قلبى بقبضة باردة وسقطت غاشية تحت أقدامه رافضة لأوجاع الفراق القادمة.

****

توسطت سرير أبيض عندما أنفرجت جفونى ومحمود يقف أمامى وبجواره الطبيبة مبتسمة

_ حمد لله على السلامة. طلعتى مامى بسكوت خالص لازم تاخدى بالك من نفسك أكتر من كده عشان النونو.

خشيت تصديقها، ونظرت لمحمود حائرة فعادت لمكتبها تخط فى أحدى الأوراق.

ساعدنى محمود على الجلوس وتكلم معها قليلاً ثم خرجنا. ركبت بجواره السيارة متسائلة أيسكن بداخلى طفل حقًا.

ترقرقت دموعى وقد تبدلت أمنياتى لخوف من فشلى لاكون أم جيدة. عندما دخلت شقتى همست لمحمود

_ أنا حامل بجد؟

_ عايز أقولك إنى أسعد راجل فى الدنيا.

_ هسألك سؤال بس عايزاك تجاوب بصراحة؟

_ لا.

_ لا ايه؟

_ مكنتش هسيبك ولا هتجوز عليكِ.

_ عرفت إزاى سؤالى؟

_ قريته فى عنيكِ، وحسيته وانتِ خايفة تسأليه عشان متلفتيش نظرى. بس محبتش أكسر بخاطرك لأن لو أتكلمت كنت هزعلك لانك عارفة انتي ايه بالنسبالى.

_ ربنا يخليك ليا يا رب. صحيح أنا فى الشهر الكام؟

_ هما كلهم شهر واحدروناقص منه يومين كمان.

ضحكت وفجأة أمتعض وجهى وأسرعت للحمام. خرجت قائلة بضيق

_ مش طايقة ايه الريحة دى؟

_ لا بقولك ايه أصحابى عقدونى. مش عايزك تضايقى من روايح خيالية، ولا نبقى فى الصيف وتتوحمى على فاكهة الشتا، ولا...

قطعت أسترسآلة بعودتى للحمام فغلغل أصابعه بين شعيرات رأسه بتوتر

_ انتي ما صدقتى تعرفى انك حامل عشان تعيشى الدور؟

خرجت منهكة متشبسة بأحشائى بقوة فساعدنى لأستريح على سريرى. سقطتت عبراتى بألم فقال ضاحكًا

_ حبيبتى بهزر. عارفة خايف بجد تتوحمى عليا. واحد صاحبى مراته اتوحمت عليه وقضت شهور الحمل أول ما تشوفه تجرى على الحمام وتقول مش طيقاك ابعد عنى واحيانا الموضوع يزيد لدرجة انه يروح يبات عند مامته. المصيبة بقى لما خلفت. بنته فضلت سنة كل ما تسمع صوته تصرخ وما تهداش لغاية يختفى من قدامها.

ضحكت وتوسدت صدره وتنفست بعمق من عبير عطره وقلت

_ بالعكس ريحتك جميلة.

_ بجد مش مدايقة؟

_ أممم ممكن بعد شوية أفكر.

أبعدنى بهلع ونهض قائلا

_ لا بقولك ايه هروح أشترى العلاج أحسن عشان ابقى فى السليم. خرج وسط ضحكاتى، فشعرت حقًا بالأشتياق لرائحته فأمسكت بأحد ملابسه، وعطرتها بعطره، وأحتضنتها، ودخلت فى سبات عميق.

****

قضيت أروع فترة حمل بين دلال محمود وعائلته حتى توج حاتم ابنى مملكتنا. عندما رأيته لأول مرة نظرت له بحنق وتذكرت عذابى أثناء الحمل والولادة. ابتسم بطفولية أخترقت قلبى بكل سلاسه فبادلته البسمة بشوق وأحتضان. دخل محمود وقبل جبهتى وجبهة حاتم وقال

_ حمد لله على السلامة يا حبيبتى، ونورت دنيتنا يا حبيبى.

أمتلات الغرفة بضحكات الجميع على نكات حمزة، ومشاغبته وفرحته بكونه أصبح عم. فى المساء خرجت لمنزل والدى وتمسكت بمحمود ورفضت رحيله. أستيقظت فى اليوم التالى على همسه للصغير فقلت

_ صباح الخير. شكلك مانمتش.

نظر محمود بسعادة لحاتم وقال

_ كنت بتعرف على صاحبى الجديد، وحكيتله أسرارى ووقعنا العهود.

ابتسمت وقلت بفضول

_ عهود ايه؟

ضحك مشاكسًا وقال

_ لا دا كلام رجالة، مالكيش فيه.

_ ربنا يهنيكم ببعض.

مكثت عدة أيام عند والدتى وكان محمود يمرعلينا يوميًا بعد العمل حتى تحسنت وعدت لمنزلى مع بدء حلول (شهر رمضان) بنفحاته الطيبة. قضينا أجمل الأوقات بين العزومات، والصلاوات، والتراويح إلى أن حضر أول أيام عيد الفطر. قضيناه وسط العائلة، وفى اليوم التالى سافرت مع محمود وصغيرى فى رحلة ليومين.

****

أرخى الليل ستائره على أِشعة الشمس الدافئ فكشف نبراث بدره محاط بنجومه الساطعة. سرت على رمال الصحراء الناعمة يلفحنى آلهواء البارد المتراقص مع رقصات البدو بالخيمات المنتشرة بالمكان.

خطوت أصفق على أيقاع أنغامهم حتى طوقتنى ذراع أخر شخص أتمنى رؤيته وأكمل السير وهو يدفعنى للأمام. قام بمصافحة الرجال وعرفهم على نفسه بود جم.

أعتدل وكأن لأعتدآله إفاقة من صدمتى فأنتفضت ونزعت ذراعه التى مازالت مستقرة على كتفى وعدت بخطواتى للخلف غير مصدقة أنه هنا.

عندما تعصف العواصف آلهوجاء بقلب أضناه الوجع، ونزف حتى الانين. تقتلع ثباته، وتذكره بهشاشة أركانه وسهولة أقتلاعه من الوريد. ابتسم بجذل وقال

_ وحشتك؟؟

اضطربت دقات قلبى بعنف فخرج صوتى بدون حياة

_ أنت مين فيهم؟

أقترب بشوق

_ حبيبك.

_ "يوناس"؟؟

صمت فضيقت حدقتى بتفكير مشكك "يوناس" بيخاف عليا. ده "أدهم" لأنه مخفتش أن أهلى يشوفوا ايده على كتفى". أقترب بحب ينطق بين حدقتيه مقرًا بأستمرار حبه بداخلى، فأجبت بحزم بأنه يتوهم. تابع بإصرار غاضب

_ أنا محفور فى قلبك، مطبوع بين ضلوعك، موشوم بروحك ومش هتقدرى تخرجينى. نظرت له بإشمئزاز وأشحت بكفى وقلت

_ كنت.. دلوقت قلبى فراغ.

_ وعقلك؟

_ بالنسبة له ذكرى.

_ بعشقك.

_ وقتك أنتهى.

أستشاط غضبا وقال

_ هرجع وهتحنى.

صرخت بخوف

_ لا أوعى ترجع أنت كابوس وخلاص صحيت منه.

أبتعد فى الصحراء الشاسعة للخلف وعينيه لم تحيد عنى بغضب متوعدًا حتى أختفى. أستيقظت أصرخ، والعرق، يتصبب من كل خلية بجسدى. نظرت حولى برعب فلم اجده، ورأيت ابنى نائم فى هدوء. قبلته وأنا أذكر نفسى أنى فى منزلى مع حاتم ابنى بعد عودتنا من رحلة العيد.

كتمت شهقاتى وخرجت من الغرفة. أحاول التماسك ونسيان هذا الكابوس. بالتاكيد لم يتعدى مشارف الحلم وسيسقط يومًا من الذاكرة. قاطع مخاوفى رنين هاتفى برقم غريب فأستجمعت قوتى وأجبت. تحطمت الكلمات على مشارف الشفاة، وصمتت الحروف أجلالاً لأغتيال روح ما قبل توبتها البشر.

عاد العمر يخضع لتقلبات الحياة وعاد "أدهم" لنحرى وما كان فى الماضى مستحيل أصبح جرت العادة عليه وأصبح ميعاد اتصال "أدهم" الصباحى لا يفوت على الرغم من تجاهلى الدائم له وأكمل باغداق نصل رسائله المهددة تليها رسائل محب شغوف حتى هلكت أسوار معبدى وقتلنى خوفٌ من معرفة محمود.

عندما نكذب على أنفسنا.. لحظة ما نتوهم أن الجرح قد شفى.. وأنا قد تخطينا حاجز الوجع.. ودفنا الندبات تحت الثرى بجوار شجرة النسيان.. سوف تظهر الحقيقة مع أول أعصار طاحن.. لتزهق روحنا بصمت مطبق.. كما سنقف في نفس اللحظة على مشارف الهلاك.. مقيدين بالأحكام المجحفة بدون حراك..

قاطع هواجسي جرس باب الشقة. نظرت لساعة الحائط وأدركت تأخرى على النزول لحماتى. مسحت مدامعى وفتحت الباب موليتها ظهرى لكى لا تتسائل عن سر بكائى بينما أغادر للمطبخ

_ اتفضلى يا طنط ثوانى هغسل وشى.

وقفت أمام حوض المطبخ والمياة تتقاطر من وجهى تشاطرها مدامعى بدون توقف. سحبت شهيق وزفير وكررتهم لعلى أنال بعض من الهدوء فقطع الصمت صوته

_ لو كنت أعرف أنك بالفتنة دى مكنتش أنتظرت لغاية دلوقت.

أرتد قلبى قبل جسدى بهلع بينما "أدهم" يقف أمامى وسط شقتى ونظراته تلتهمنى بإنتصار بدون رادع. تهدل كتفى بيأس من الحياة ومقدراتها، فها قد عاد واستباح السيف رشق وترى لينفلق القلب نصفين ولا سبيل للنجاة.

اقترب "أدهم" مستغل صدمتى ومسح دمعاتى محاولاً التودد. دفعته بأشمئزاز وصرخت ليخرج فلف جديلتى حول كفه وشده بعنف وهو يقربنى لصدره ثم قال بإنبهار

_ دا طلع شعرك بجد.

ضربت صدره وحاولت الصراخ فقيد خصرى بذراعه الأخرى ضاحكًا بإستمتاع، وهمس

_ ما تخافيش محمود مش هيجى قبل الساعة4، ومن الأخر كده مش خارِج من هنا إلا لما اخد حقى.

كان لكلماته صدى خاص افاقنى من طريق إنهيارى على صورة محمود وكأن المصائب هى من تكشف الحقائق، وترفع الغشاوة عن القلب لتبصر بها العيون. دار أمامى شريط ذكرياتى مع محمود.

المواقف التى جمعتنا من البداية، ووقوفه بجانبى، وتحيزه لصفى، وكيف ذهلت لطلبى للزواج. شعرت بمدى ضعفى بدونه، وأجتاحنى شوق جارف للاختباء بين ضلوعه والأعتذارا لكل ما عاناه بسببى وشعرت بنبضى يخفق بحبه بدون تزييف ويا للسخرية أشعر بحبه وأنا أقف بين يدى غريمه.

فلماذا لا نشعر بقيمة من يحبونا إلا إذا شعرنا بفقدانهم؟ وفى التو أخذت القرار فمهما كان قدرى أو حتى هلاكِ لن أسمح بتدنيس عرض محمود وشرفه.

وفى لحظة مباغتته لم تحدها وطئت همساته الحميمية أمسكت بسكين بجوارى وجرحت كتفه فدفعنى للحائط تارك جديلتى.ابتعدت مهدد مشهرة بالسكين أمامه فلمع طوفان الغضب بمقلتيه واقترب خطوة رجف لها قلبى وقبل أن يكمل الثانية كان ممسك بمعصمى. تمسكت بالسكين بشدة ومشخت وجهه بأظافرى، وما بين أصراره ومحاربتى سكنت السكين صدرى.

ابتعد "أدهم" مذعور وفى نفس اللحظة فتح باب الشقة وظهر من خلفه أهلى وأهل محمود فسقطت أرضًا بجذع واخر ما نطقت هو اسم "محمود" الذى كان يقف بأوسطهم حاملاً كعكة عيد ميلادى.

****

أيام.. شهور مروا..

لم أدرك بينما أنفاسى مستكينة تحت أجهزة صماء وصوت تمتمات بعيدة المدى تشرق على ذاكرتى. بصيص من الضوء الخافت وصل لجفونى فاحرقها فعدت أغلقهم بتأوه قبل أن أعيد فتحهم.

وقف أمامى محمود وعينيه تلمع بدموع فرح بينما نمت لحيته بكثافة ونحف وجهه وجسده كثيراً. حاولت التكلم لكن الأم رهيبة سكنت حنجرتى فقال محمود ودموعه تشق خديه بدون سيطرة

_ فتحتى عنيكِ بجد؟؟ أكيد مش تهيئات من كتر ما اتمنيت اللحظة دى؟ اخيراً يا "آيات" حنيتى عليا ورجعتى.

ابتسم بمرح حزين

_ كده برضوا هنت عليكِ تحرمينى من عنيكِ طول الفترة دى. كل الناس يأست أنك تفوقى من الغيبوبة إلا أنا. كنت متأكد أنك راجعة. ما هو مش معقول تسيبينى أبو حنفى يعيش من غيرك. وحشتينى يا قلب محمود وروحه.

ضيقت حدقتيى بألم محاولة فهم حديثه وأنامله تمسح

بأرتعاش على ملامحى بعدم تصديق. أنفرجت جفونى بصمت عندما عاودتنى الذكرة فشعر محمود

بتساؤلاتى بدون حروف تتجاوز شفاهى. أعقب

_ أنسى يا "آيات" كل حاجة. هو خلاص اتحبس واعترف بأنه كان مراقبك، وغلطتى أنا كمان إن سبت باب العمارة مفتوح عشان الناس اللى هتحضر عيد

ميلادك والمفاجأة ما تبوظش، بس هو أستغل الفرصة. سامحينى يا حبيبتى أنا السبب فى اللى جرالك.

ثم أكمل بمرح وفخر

_ عارفة يا "آيات" فى عز كل اللى حصلنا كانت الناس بتهنينى بيكِ لأنك دافعتى بحياتك وصنتى عرضى وشرفى ما هما ما يعرفوش محمود اختار مين عشان يكمل معاها حياته.

ختام

"العشق والخيال"

اعترف في خاتمة كلماتي أن "أدهم" قد غاب عن ساحة الواقع ولكن على الرغم من مرور الأعوام لم أتمكن من نسيان "يوناس" هذا الأسطورة الذي عشت معه لسنوات..

سواء ما عشته كان حقيقة أو خيال سوف يبقي بقلبي يوناس ساكن فى مكان خاص به.. سوف تظل معي رحلاته والسعادة التى رسمها على ثغرى علي مدار أعوام وبالرغم من كل المأسى التى عشتها معه وبعده سوف يظل يوناس فى ذاكرتي دون أي رغبة مني في أن أمحيه.

وكلما أشتاق إلي يوناس صديق الطفولة وحب المراهقة والصبي ابتسم بحزن دفين. على الرغم من عشقي الجارف له إلا أني قبلت وأستكملت مرحلة علاجى بعد أنتهاء الغيبوبة الطويلة وعدت لمنزلى بأشتياق كبير وبداخلي رغبة في استكمال باقي حياتي مع محمود الذي منحني ما لم يمنحني غيره من عالم البشر وأعلم أنه مستعد أن يمدني بالمزيد ايضًا.

مرت الأعوام وعدت أتذوق شُغِفَ الحب مرة أخرى مع محمود ورزقنى الله بمولودى الثانى حمزة على أسم عمه الوحيد. أخذ حمزة الكثير من ملامحى وخاصة عيوني المشتعلة عند الغضب فأصبح لديه وسامه ذكورية طفولية تمكنت من خطف القلوب بحُسنه.

كان قدومه جالب للنعمة على حياتي فبدأ محمود بفتح صيدليته الخاصة وعاد من جديد ليستكمل ابحاثه التي تركها مع غيبوبتي.

ذات يوم سافر محمود لأحد الأماكن الصحراوية بمصر لمتابعة تجاربه وابحاثه. فى المساء بعد أن هاتفنى بمحمود ليطمئن علينا ونهلت نصيب وافر من شوقه أغلقت الهاتف وأقتربت أقبل أبنائي وعلى بسمتى ابتسامة حب وأشتياق لوالدهم.

أختفت ابتسامتى بلمستى لجبة حمزة الصغير وقد بدأت حرارته بالأرتفاع. هرولت به لأقرب مركز طبى بعد ما أوصيت حماتى على عبد الرحمن ابنى الأخر ولم اتمكن من انتظار والد محمود أو أخوه من الخارج ليقلوني إلى الطبيب. أسرعت بطفلي إلى أقرب طبيب وكان على وشك أنتهاء مواعيده الطبية وقد خرج مع دخولي له أخر مرضاه.

دخلت فورًا له وكان مكتوب أسمه على باب عيادته الدكتور "طارق عبد الرحيم". كان يجلس الطبيب خلف المكتب يسطر بعض السطور بقلمه. رفع عينه لحظة محييًا ثم عاد يدفنها بدفتره، وفى أقل من ثانية كان يعود بمقلتيه ليتفحص ملامحى بأنشداه. تسمرت مكانى بعد أن وعيت لقسماته وقلبى يهتف بعدم تصديق. ابتسم الطبيب ببطء وتمت بكلمات لم تصلنى وكان تعقيبى الوحيد علي كلماته

_ "يوناس"؟.

أبتسم الطبيب وبدأ حاجبه فى الإرتفاع بأناقة ونظرة مكر تسربت من بين جفنيه فوصلتنى ذبذباتها. تسللت دموعى لمقلتى ولم أفهم ماهية شعورى. فهل هذا من كنت أبحث عنه؟ هو ايضاً يحمل نفس ملامح "يوناس" صديق طفولتي وحب المراهقة.

وتسائلت عن من كنت أبحث؟ عن ملامح "يوناس" وهيئته؟ فقد وجدتهم فى "أدهم" وعشت معه أسوا أيام حياتى. أم عن حنانه وإهتمامه فقد منحنى إياهم محمود بدون مقابل.

أنتفضت مع غزو صورة محمود مخيلتى فى نفس اللحظة التي وقف الطبيب فيها ودار حول مكتبه وأقترب متفحص ملامحى وقال

_ أحنا ما شفناش بعض قبل كده.

أومات برأسى بالرفض بتكرار وقلت بتحذير صارم

_ مش هنعيده من تانى.

أحتضنت ابنى وهرولت للخارج وصورته قد حفرت بعقلى.. وقلبى قد أخذ قراره بحزم لن أصبح ضائعة بين العشق والخيال منذ الأن، بينما وقف الدكتور طارق يواجه سرابى ووميض عينيه يبرق بهبوب رياحه متوعدًا بالمزيد من الأسرار والغموض عند عودتي..

كلمة الكاتبة

قد يري البعض أن ما حدث مع بطلة القصة مجرد خيال وليس له أي أساس من الواقع وقد يراه البعض هو حقيقة كاملة وربما قد صادف حالات مماثلة من أي جانب ومن المؤكد أن طبيعة الإنسان وخاصة في طرح مثل هذه الأمور التي تغيب عنه حقائقها وتختفي من بين أنامله مجرياتها والأهم تفاصيلها وما يحدث فيها من وراء الكواليس تجعله يشك في بواطن الأمور ويكثر السؤال فيها بكيف واين ومتي..

ولكن..

بعد قرأة واستفاضة في الأمر وسؤال أصحاب الخبرات والسعي وراء الحقائق من مختلف النواحي وطرق أبواب الأطباء النفسيين كانت الخلاصة أن..

ما حدث مع "أيات" قد يحدث في أي وقت ومع أي شخص في أي مكان، ولكن الحماية الوحيدة التي منحنا الله إياها كأحد نعمه علينا تتجلي في قراءة القرأن واتباع الأذكار وهدي نبيه مُحَمَّد صلي الله

عليه وسلم..

لم أطرح روايتي لغرض ديني بحت ولكن طرحتها كصرخة وعظة لمن يهمه الأمر..

حفظني الله وإياكم من كل شر.. وجعلها حجة لي وليس علي..

"تمت بحمد الله"